عكس الاتجاه

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 2758 / 2020

الترقيم الدولي: 5 – 450 – 838 – 977 – 978

الكتاب: عكس الاتجاه

المؤلف: د. تامر عز الدين

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

عكس الاتجاه

قصص قصيرة

تأليف

د. تامر عز الدين

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

عكس الاتجاه

ما زال القطار يقبع مكانه، تتقدمه عربات الدرجة الأولى ثم تليها الدرجة الثانية وتاتي في الموخرة درجة السبنسة.

جلستُ هذه المرة متقدمًا استنشق الهواء البارد الذي تتميز به عربات الدرجة الأولى تذكرت كيف جئت منذ عدة شهور تخنقني الأنفاس ويضيق صدري وأنا الآن أعود في أجواء باردة ولكن ما زلتُ مختنق النفس وضائق الصدر ربما اختلف السبب ولكن النتيجة واحدة.

كان المقعد بجواري غير مشغول، بدون اكتراث جلست أرصد الناس من نافذة القطار دون أي محاولة مني لسبر أغوارهم أو الكشف عن نفوسهم ويعبر أذني ضجيج الناس

وتمر من أمامي حشودهم المتدافعة.

أغمضت عيني طلبًا للراحة لم أطلب يومًا راحة لجسدي قدر ما كنت أحتاج إلى راحة نفسي.

ولم أكد أدفن رأسي بين يدي حتى اقتحم علي الكمسري مجلسي وفِي صحبته ثلاثة من الركاب الذين بدا عليهم من هيئتهم أنهم رجال ذوي شأن، أدركت أنهم أصحاب أو رفقاء في سفرهم.

استأذنني الكمسري أن يجعل مقعدي والذي بجواره في مواجهة المقعدين الخلفيين بناء على رغبتهم.

وافقت دون مضض لم يكن يعنيني الأمر كثيرًا أو يفرق معي فما كان يدور بداخلي يذهلني عن أي شيء آخر!

وإن كنت أفضّل الوحدة ولكن لا بأس ربما وجودهم يسري عني، إلا أنني لا أرحب بأي حوار أو أي كلام.

قمت في هدوء وتطلعت حولي لعلي أجد مقعدًا منفردًا بدون رفيق فأختلي بنفسي فيه إلا أن القطار والدنيا بخلا علي بما أريد!

تحرك القطار وظهري في اتجاه حركته كأنه يأخذني رغمًا عني في طريق محدد لا يحيد عنه ولا يتبع هواي أو هوى أي أحد كالمصير الحتمي للبشر حتى يصل إلى محطته الأخيرة.

ساد صمت قصير حتى تكلم من بجانبي وهو في الأربعينات من عمره رقيق الصوت أنيق المظهر موجهًا للآخرين كلامه وكانا قد تعديا الخمسين بعدة سنوات أحدهما كسى رأسه البياض والآخر لا يفضح عمره المشيب لأن رأسه خالية من الشعر، إلا إنهما كانا ذوي مهابة وكأنهما أصحاب سلطة ما.

عرض الأنيق على الآخرين أن يتناولوا معه قهوة فوافق أحدهما وطلب الأخر شايًا جاء رجل المشروبات بالقطار بطلباتهم وسألني

إن كنت أريد شيئًا فهززت رأسي بالرفض ووجهت وجهي عبر النافذة أري الحياة خارج القطار تركض مسرعة عكس اتجاهي وكأنها تفر هربًا مني، ولكنني وجدتني أتابع الحوار الذي دار بينهم باندهاش واهتمام رغمًا عني وإن لم أبدِ أي تعبير يشي بذلك.

تبيّن لي أنهم من هيئة القضاء عندما دار الحديث عن قضية أثارت الرأي العام موخرًا.

قال الأنيق: تعتقد سيادتكم إن محامي القاتلة كان على حق ولكن الأدلة لم تسعفه؟

رد الأصلع بصوت خشن أجش: أعتقد إن هيئة النيابة غطت كل الجوانب فدافع القاتلة واضح وزجاجة السم وجدت في سيارتها.

قاطعه الأنيق قائلًا: لكنها أصرت أنها لا تدري أي شيء عن هذه الزجاجة ولا كيف وصلت إلى سيارتها، كما أن بوليصة التأمين على حياته والتي آلت لصالحها ليست دافعًا كافيًا لقتل زوجها بعد ٣٠ سنه زواج، صحيح هي أصغر منه لكن...

هنا تكلم صاحب الشعر الأبيض بصوت حاد:

هكذا الصحفيون يبحثون عن الإثارة،

إنها قضية واضحة ولا تنسى إن مكانة الرجل ووضعه السياسي والاقتصادي هي ما منعتنا من التصريح بكل ما لدينا في بداية التحقيقات.

ولكن الآن بعد ما أصبح الأمر واضحًا لا مانع من بعض المشهيات للصحافة.

ابتسم الصحفي الأنيق قائلًا:

أنا أشكر الظروف التي جمعتني بسيادتكم في هذا السفر.

فنظر أبيض الشعر إليه بخبث وقال: الظروف!

إنك تعرف جيدًا إننا لا نحب السفرات الطويلة إلا بالقطار فرتبت الظروف،

لكن لا بأس نحن سعداء بصحبتك.

لم أرغب أن ألتفت إليهم وحرصت على أن أبدو وكأن لنوم غلبني حتى لا يقيدهم وجودي

وتطفلي لسماع حديثهم الذي شدني عاد الأنيق ممثل السلطة الرابعة يقول: طول هذه القضية وأنا أشعر أن هناك أمرًا مجهولًا حلقة مفقودة!

رد الأصلع بصوته الأجش: لا يوجد شيء مجهول أو غائب عن العدالة ربما كان ذلك في البداية ولكن الأمر اتضح بعد اكتشاف بوليصة التأمين بمبلغ طائل واكتشاف أمر زجاجة السم في شنطة السيارة، ودعمت هذه الأدلة خبر الخلاف الذي كان بين الزوجين منذ فترة وسماع بعض الشهود تهديد الزوجة لزوجها بالقتل.

قال الأنيق: ولكن تعددت الأقوال في سبب الخلاف الذي كان بينهما ولم يثبت للنيابة ولا لهيئتك الموقرة سبب واضح.

رد الأصلع: في مثل هذه الأحوال يصعب على القاتلة البوح بالسبب الحقيقي ولكن فارق السن وعدم وجود أولاد بينهما قد يسببا كثير من الخلافات الزوجية وخصوصًا أنه كان ذو منصب سياسي مهم وصاحب ثروة طائلة.

قاطعه الصحفي: هل شكت النيابة في وجود عشيق للزوجة شجعها على هذا الأمر.

هنا تكلم ذو الشعر الأبيض وكان قليل الكلام:

أمر طبيعي أن تبحث النيابة مثل هذه الملابسات بأن تكون الزوجة على علاقة ما تكون سبب الخلافات ويجعلها تطمع في زوجها، إلا أنهم لم يتوصلوا لأي دليل يوصلهم إلى ذلك .

رد الصحفي: ولكني سمعت أنه كان على علاقة بامرأة ثانية وكانت هذه العلاقة سبب المشاكل.

رد الأصلع: لم يثبت مثل هذا... ثم سعل سعلة خفيفة واستطرد ما تنساش إن الرجل كان صاحب منصب حساس ومثل هذه الأخبار خطوط حمراء لا يجب..... أقصد لا يجب التشهير بسمعة الرجل فقد مات.

رد الصحفي: مات قتيلًا مهما كان.

رد ذو الشعر الأبيض: نعم ولكن ما زال لمنصبه أبعاد أخرى يجب أن تراعى.

قال الأنيق وهو يعود بظهره إلى الوراء في مقعده:

ولكن ثبوت التهمة على الزوجة.. أليس في ذلك ما يشوب سيرة الرجل. وخصوصًا نه لم يكن ذلك الرجل نظيف الساحة.

رد ذو الشعر الأبيض في غضب :هه...هه !!! احذر

إنك لا تخوض في سمعة شخص، إنك تخوض في سمعة نظام وإن يكون الرجل قُتل بسبب طمع زوجته أمرًا لا يعكر سمعته ولا يشكك في منصبه.

رد الأنيق مرة أخرى مترددًا في تعليقه:

إذا .....إذا لا توجد شبهة سياسية وراء الجريمة.

رد ذو الشعر الأبيض مستنكرًا:

جريمة سياسية لا.....لا .....لا يمكن

رد الأنيق:

لكن كان للقتيل معارضين ومخالفين كثير ومصالح متداخلة كما أنه هناك كلام على اتصالات كانت بين زوجته وبين بعض الصحف

والأحزاب المعارضة غير أن أخبارًا تداولت عن قضايا فساد قد تطيح به وتحسب على النظام أقصد....

قاطعه الأصلع بنبرة حادة:

آه منكم أيها الصحفيين

إن الامر واضح وضوح الشمس

لماذا تحبون الفضائح والشائعات ...!

لا سياسة ولا غيره.....

هذا ما كان ينقص القضية مقال أو اثنين بهذا الأسلوب وهذه الأفكار سوف تحولون حكم المحكمة إلى حكم سياسي أليس كذلك!

انكمش الأنيق في مقعده وهو يقول:

لا ...لا لم أقصد ذلك.

لكن زوجة رجل مثل هذا في صفوف المعارضة أكيد لم يكن ليرضي الكثيرين

رد ذو الشعر الأبيض:

أنتم أيها الصحفيين لا يريضيكم أي شيء

أيًا كانت الحقيقة وأيًا كان الحكم سوف تعبثون وراءه بتكهناتكم المريضة سعيًا وراء الضجة والشهرة.

رد ممثل السلطة الرابعة وهو يرشف آخر رشفة من فنجان قهوته:

أرى هيئة المحكمة راضية عن حكمها

رد الأصلع:

كل الرضا.. كانت قضية رأي عام يجب أن تُطوى ولا تثير أكثر مما أثارت.

والزوجة يمكنها الطعن على الحكم إن أرادت. ثم وضع كوب الشاي وأسند رأسه للوراء.

ونظر إليه الأنيق هذه المرة بخبث

وقال: ما زالت الصحافة تبحث عن المجهول أيها السادة.

كنت أسترق النظر إليهم وتدور برأسي الدوائر.

إلى هذا الحد تلعب المقادير.

ساد صمت رهيب .. انشغل بعد ذلك كل في نفسه بين نائم ومتصفح للجرائد وأنا رجعت انشغل بنفسي وبمصيبتي

لا يدري أحد ممن حولي ما يعتمل في خاطري الآن:

آه لو يعلمون ما يدور بداخلي أردت أن أقفز من بينهم وأترك القطار إلى مصيري الذي لا أدري كيف سيكون بعدها.. نعم بعدها أتذكرها بكل وضوح في كل وقت..

كأنها ماثلة أمامي ببراءتها يوم تخرجت من الكلية وعملت في إحدي الشركات تحلم بمستقبل باهر وأسرة سعيدة أرادت أن تكون شخصية غيري وغير أمها أن لا تخشي أحد، أن لا تكون قليلة الحيلة وضعيفة مثلي، من العمل إلى البيت ومن البيت إلى العمل، ليس لي تطلعات أو أحلام أكثر منها حلم، وليس لي أي نشاط من أي نوع، فقد تعلمت أن لا أسير عكس الاتجاه.

أعيش في المجتمع إنسان مجهول، أعمل ما يريده الكبار فقط، فهم أعلم مني بمصلحتي.

رحلت عني زوجتي إلى السماء في نصف الطريق لتبقى هي كل حلمي وأملي وحياتي.

ولكنها عرفت الحياة التي لم أعرفها، وتجرأت عليها وتمنت أن تكون علمًا فيها وليس مجرد نكرة، انتقلت من تفوق إلى آخر ثم سافرت بعيدًا عني لعملها الجديد، لم أستطع أن أذهب وراءها، شعرت أني أصبحت كالسمكة داخل حوض زجاجي صغير أخاف أن أخرج منه فأموت.

كانت تعود إلي لتضيء لي حياتي نهاية كل أسبوع حتى غابت ذات مرة أكثر من شهر وانا آكاد أجن.

كان صوتها يأتيني عبر الهاتف «معلهش يا أبي ياحبيبي ظروف شغل»، ولكن نبرات صوتها كانت تزيد من قلقي وخوفي.

قررت أن أسافر إليها حيث تعمل ولكنها عادت..

عادت إلي لكي تلفظ أنفاسها بين يدي..

مسكينة راحت ضحية هذين المجرمين!

وصل القطار

قام رفقائي يضحكون وهم يغادرون القطار، قمت وراءهم

وقفت على الرصيف بلا أي متاع، نظر إلي الصحفي بطرف عينيه قبل أن يلتفت عني

نظرت إليه

كان كمن يسال نفسه

من أكون؟!!

إنه أنا المجهول

أنا القاتل

أنا من دسست السم لهذا الملعون الذي حطم مستقبل ابنتي عندما خدعها بمعسول الكلام وبقوة منصبه ثم اعتدى عليها

حملت منه سفاحًا..

ولما عرفت زوجته المجرمة هددته بفضحه إن فكر أن يتزوجها سرًا ليحافظ على سمعتها خوفًا من أن تنجب له من يستولى على ثروته، فأذعن إليها خوفًا من تهديداتها بأن تخبر أعداءه السياسيين فتكون نهايته.

وأرغمتها بجبروتها وسلطتها وبلطجيتها وتهديداتها بحياتي على أن تتخلص من الجنين، وأعدت كل شيء في الخفاء حتي لا ينفضح الأمر.

خافت عليّ ابنتي من هول الفضيحة فلم تخبرني، عرفت الحقيقة متأخرًا.

عندما جاءت إلي تحمل خطيئتها وتنزف دمها حتى الموت،

خرجت الحقيقة من بين شفتيها تصاحب أنفاسها الاخيرة كطلقات رصاص في قلبي نزعت منه الحياة.

كانت بين يدي جثة هامدة وأنا على صدرها جثة جامدة،

صرت بعدها ميت بين الأحياء، لم أستطع أن أفعل أي شيء يبقيها لي حتي ولو بخطيئتها كنت سأسامحها، كنت سأغفر لها..

المهم أن تبقى لي أن لا تتركني وحيدًا

حذرتها من هذا العالم، عالم الغابة الذي تأكل فيه الوحوش الضعفاء، ونحن هؤلاء الضعفاء.

هؤلاء الوحوش المفترسة ليس من العدل أن ينعموا بحياتهم على أشلاء حياتنا.

كان يجب أن لا يضيع دم ابنتي هباء، كان يجب أن أتخلص من ضعفي ولو لمرة واحدة.

كان يجب أن يكون لي أنياب ومخالب لمرة واحدة،

نعم أنا القاتل المجهول أعددت كل شيء في هدووووء

مرت سنوات وسنوات.

وأنا بعيد أبتلع مرارتي وأقتات حزني وأجتر ألمي ثم دبرت كل شيء.

لم أكن أكترث كثيرًا إن انكشفت، فلم يعد يفرق لدي شيء،

المهم أن تهدأ براكين الغضب المشتعلة في قلبي.

سافرت إليهم، تقدمت إلى العمل بالمطعم الذي اعتادوا أن يتناولوا فيه عشاءهم كل خميس، وضعت السم له في كوب العصير وصاحبت منادي السيارات الذي اعتاد أن يركن سيارة زوجته ووضعت زجاجة السم بسيارتها.

لقد تخلصت من الاثنين..

تخلصت بنفسي ممن سلباني شرفي وحياتي.

لم يكن لينصفني عدلهم المزعوم، ربما كان انتقامي فرصة لتصفية حساباتهم فيما بينهم.

كنت أعلم أنه من الغباء أن ألجأ إلى هؤلاء الحمقى كي يأخذوا لي حق ابنتي.

إنهم يحكمون على كل شيء من خلال مصلحتهم، إن ميزان عدلهم له كفة واحدة ليست في صالحنا على طول الوقت، لم يكن يستطيع أحد آخر في هذه الحياة أن يشفي جرحي أو يعيد إلي الحياة مرة أخرى.

إن مصيري أصبح كالقطار يسير على مسار واحد عكس الحياة إلى محطته الأخيرة والتي لا أعلم أين ستكون؟

ولا يصبرني إلا أنني أمضي عكس الحياة في اتجاهي إلى ابنتي وقد أخذت بثأرها.

أعرف أني لن أحصل على الراحة فيما تبقى لي من مشوار

فما زلت أعيش مجهول..

وأسير إلى مجهول

لمتّ

الغروب

شعر بهذا الإحساس الغريب الذي ينتابه دائمًا عندما يبتلع البحر الشمس وهي تستسلم لأمواجه لتختفي عن الكون... إنه الغروب!

إنه شعور أشبه ما يكون بالانقباض، لايدري لماذا ينتابه مثل هذا الشعور في مثل هذا الوقت ربما يعود إلى فجر حياته، ربما كان هناك حادثًا مقبضًا حدث له أو أمامه عندما كانت الشمس تغرق في البحر، نعم تغرق هذا هو الأمر! تغرق.....

لماذا لا يريد ذهنه أن يقترب من هذه الكلمة؟!

لكن في هذه اللحظة كان الشعور جديدًا عليه إنه مزيج من الانقباض والقلق والخوف.

هل هو دخول الشتاء، هل هو الاكتئاب الذي يصاحب الضباب، أم ذلك اللون القاتم الذي يجعل الأشياء غير واضحة وغريبة.

غريبًا هو هذا الشعور الذي يشعر هذه الأيام ليس شعور الانقباض الذي انتابه الآن فقط ولكن هناك إحساسًا جديدًا ينتابه، إنه لا يرى العالم واضحًا، منيرًا، لا يراه حقيقيًا، كل الأشياء غريبة، العالم الذي يدركه بعينيه وأصابعه وأنفه وأذنه عالم غريب، ربما جديد..

نعم ما هذا المكان ومن هؤلا الناس؟

أين هذا الولد الشقي ألم يعد بعد؟

أين أمينة؟

الناس حوله تبدو غير حقيقية لا يعرفها، الوجوه التي يعرفها أصغر كثيرًا ممن حوله وأكثر ألفة.

عند رأس السرير بالغرفة التي كان يقف في وسطها كان هناك منضدة صغيرة أشبه «بالكوميدينو» يقف عليه برواز يتوسطه صورة لثلاث شخصيات هو واحد منهم وعدة علب لأقراص دواء مختلفة.

كانت الإضاءة خافتة مما أعطى إيحاء بصغر حجم الغرفة، كانت أشبه ما تكون في بساطتها كأنها قمرة سفينة بهذا الشباك الشبه دائري والذي يسمح برؤية سطح البحر وقرص الشمس الذي تقترب منه.

يقوم من على الكرسي، يتجه إلى الباب، يفتحه يخرج إلى البهو الخارجي يرى مجموعة من الغرف المتجاورة بعضها أغلقت أبوابها والبعض تركت أبوابها مفتوحة لمن يريد الدخول.

ينظر لمن حوله وينظرون إليه، البعض يبتسم له ابتسامة ودودة والآخر يلقي عليه تحية مقتضبة، وهو لا يرد.!

يندهش من هؤلاء... من هذا الشخص غريب الأطوار الذي يرتدي ملابسه الداخلية ويجلس هكذا بدون حياء وسط الآخرين ويقهقه بطريقة غير لائقة؟!..

ومَن هذا الذي يقترب منه؟! و...

يسأله:

«عبد العزيز أخيرًا ظهرت ما كل هذا النوم يا رجل؟»

لا يرد وينظر إليه باستغراب..

«أهو صديقي؟!» يسأل نفسه

ماذا تعني كلمة صديقي؟!

إنها تعني العِشرة والحب والأوقات المشتركة...

شيء غريب... أهذا الشخص بيني وبينه حب وعِشرة؟! أهذا الشخص أعرفه من قبل؟!

مَن قال هذا؟! عيناي تؤكدان أني لا أعرفه وذاكرتي لا تذكر أنها رأته من قبل

لا.. إن هذا غير حقيقي ربما يكون شخصًا نصابًا

هو يبدو غريبًا عني حتى صوته يبدو كأنه قادم من بعيد.. صوته غير مألوف لأذني

صورته مغبشة!!

يحدثه هذا الغريب بود وهو يندهش لهذا الود، يحدِّثه وكأن هناك مواضيع كثيرة بينهم..

يندهش لكلماته يندهش للموضوع الذي يتحدث عنه.. إنه شخص غامض!

يدفعه من أمامه

ويحاول هذا الآخر أن يمسك ذراعه

ماذا يريد منه؟

«أكيد هذا الرجل نصاب أو مجرم»

يحاول أن يتملص منه ويبتعد

لكن الآخر يناديه:

«عبد العزيز إلى أين أنت ذاهب؟»

يندهش.. كيف يعرف اسمه؟!

ولكن لا يهم الآن، إنه يعيقه عن الخروج من هذا المكان

إنه يريد أن يخرج الآن وحالًا!

لماذا يريد أن يخرج؟..

إنه لا يدري .. لا يعرف.. ربما هذا الشعور الذي انتابه في هذه اللحظة شعور الانقباض المفاجيء، هذا الشعور يدفعه للخروج إلى أين؟.. لا يدري أيضًا

يحاول الجميع منعه ولكنه يصرخ في وجوههم:

«اتركوني»

يخرج رغمًا عن الجميع.

يعبر الشارع إنه يعرف الطريق لكن على الرغم من ذلك الشارع يبدو غريبًا عنه، يسأل نفسه مجددًا:

«أين ذهبت أمينة في هذه الساعة؟ ولماذا تركته في هذا المكان وحيدًا؟.. دائمًا هي هكذا لا تلتزم بمواعيدها.. ربما ذهبت لإحضار (علي) من المدرسة؟!.. لكن الوقت تأخر والشمس غابت.

اللون الرمادي يشوه الأشياء.

يضغط رأسه.. يهزه بقوة، شيء ما يتحرك في رأسه، كلام، صور، ذكريات،.. لكن كلها تؤدي إلى نفس الإحساس!

إنه نفس الشعور.. نعم يتذكر الآن وكأن الصور تتجمع من فصي مخه لتمثُل أمام عينيه..

إنه أحمد أخوه الأصغر.

لقد شعر بنفس الشعور عندما غرق أخيه الأصغر «أحمد» أمامه في البحر.. عندما ابتلعته الأمواج وهي تبتلع الشمس.

نعم.. إنه يكره هذا الوقت منذ ذلك اليوم.

لكنه اليوم أين تراه كان وأين تراه ذاهبًا؟!.. لا يتذكر، تبدو الأشياء في رأسه كشريط سينمائي مسحه الزمن، فصوره مغبشة وأشخاصه غير واضحين المعالم.

لا يدري لماذا يصر على الخروج؟

لا يدري لماذا يسرع الخطى يشعر وكأنه سيذهب لينقذ أخيه.. فهل ما زال هناك وقت لينقذه!

لقد شعر بالعجز وقتها، العجز الذي قاده إلى الألم والحزن.

كل شيء يبدو غريبًا معتمًا.

ما زال حانقًا على أمينة التي تأخرت كعادتها، سيوبخها كثيرًا عندما يراها، ولكنها كالعادة ستدّعي عدم المبالاة،

على الرغم من ذلك يحبها لأنه عندما ينظر لعينيها يرى سنين عمره..

إنها هي من أنسته حزنه على أخيه وهي التي وقفت بجانبه، ظهرت له كملاك أنقذه من عذابات نفسه، احترم فيها صدقها وجديتها في أول تعارف بينهما.. عندما صرحت له أنها مصابة بالسكري منذ صغرها..

قال لها: «وهل يعوق السكر الحب ويمنع الزواج.. وبعد ألست طبيبًا!.. فمن يصلح لكِ إلا طبيب مثلي!»

أين أمينة التي أحبها؟!

لكنها لم تستطيع أن تتخلص من مشكلتها مع الوقت.. وهو يحترم الوقت، وهي كباقي النساء لا يعِرن للوقت أهمية.

«الوقت...!»

إن الوقت يمر وإحساسه بالضيق يزيد.

لماذا هو هنا الآن؟! ما زال فكره مشوشًا لكن هناك شيئًا ما بداخله يدفعه، يحركه وهو يسير وراءه دون أن يعرف لماذا يسير!!

لماذ لم يذهب للمستشفى اليوم... أهو يوم عطلة؟!

وقف على الرصيف أشار للتاكسي الذي يمر من أمامه..

وقف التاكسي فركب على الفور.. سأله السائق: «إلى أين؟»

إنه لا يدري إلى أين.. صمت لحظة.. ربما لحظات امتدت لدقائق والسائق ينظر إليه..

كان متوترًا، ثم قال له: «إلى أمينة»

رد السائق: أمينة!.. وأين أمينة؟

فرد دون تردد: شارع السبع بنات المنشية.

يتحرك التاكسي ذو اللون الأصفر والأسود المميزين، يخترق شوارع الإسكندرية في أجواء شتوية غائمة وعينيه تخترق الزمن تبحث عن شاطيء ترسو عليه، وينساب إلى سمعه صوت العندليب..

ضي القناديل..

والشارع الطويل..

فكرني يا حبيبي بالموعد الجميل..

يا شارع الضباب مشيتك أنا مرة بالعذاب ومرة بالهنا..

الكلمات تداعب الخلايا الرمادية في مخه وتعود بها إلى سنوات مضت، يحاول أن يتذكّر التفاصيل التي تتلاعب كالأشباح في مخيلته.

يقترب السائق من الشارع ويسأله: حضرتك عايز تنزل فين؟

لايرد.. لأنه لا يعرف جيدًا أين يجب أن ينزل!

ينظر من شباك التاكسي البيوت تمر من جانبه ببطء والمارة يقطعون الشارع بشكل عشوائي، تبدو ملامح البيوت مألوفة كأنها صديق يرتاح لرؤيته، يشعر بالألفة يرد دون وعي: هنا.. هنا.. قف هنا.

يتجه إلي المنزل الذي يتصدر الناصية يصعد السلم وهو يشعر بالألفة ولكن الضيق لا يزال يسيطر على نفسه،

وما زال حانقًا على أمينة لأنها تركته وتأخرت، أكيد سيجدها هنا مع (علي) تذاكر له الدروس كالعادة، ولكنه لا يسمع صوتها يجلجل في أنحاء السلم.. يقترب من الباب في الدور الثاني.. يرن الجرس.. ولا ينتظر أن يفتح له أحد فيخرج مفتاحًا من جيبه ويفتح الباب، تستقبله رائحة المنزل المحببة.. ينادي: «أمينة»، لا ترد أمينة..

«علي»، لا يرد علي..

يتجه إلي الحمام لا يدري لماذا؟!

يفتح الباب، يسمع صوت الماء يندفع في البانيو، ويندهش من هذا الذي يرقد داخل البانيو!.. «من أنت؟»

إنه لا يجيب هل هو نائم؟!

نائم وهو عريان!! يقترب منه.. إنه في غيبوبة يقترب من فمه يشمه إنه يعرف هذه الرائحة جيدًا.. إنها رائحة الأسيتون.. إنها غيبوبة ارتفاع بالسكر!!

إن رأسه تكاد تغوص في الماء الذي يفيض من جوانب البانيو، يحاول سحبه بصعوبة بالغة خارج البانيو، يديه لا

تقويان على ذلك عضلات يديه تخوناه فينزلق داخل البانيو

إنه يغرق!

«لا يا (أحمد) لا تغرق.. لن أتركك تغرق.. سأنقذك»

يحاول مرة أخرى..

يتصبب العرق من جبينه ويضيق صدره ينتابه ألم شديد يشق قلبه ويصدع كتفيه: «لن أتركك تغرق يا أخي»

يزداد العرق على جبينه وتزداد ضربات قلبه وتتسارع أنفاسه تكاد تتوقف ويكاد يلفظ قلبه خارج صدره ولكنه لن يتركه..

يحاول مرة ثانية ودقات قلبه تتسارع.. ينزلق ثانية من بين يديه.. يتشبث به يمنعه من الانزلاق داخل البانيو، ينجح في إخراجه من البانيو إلى أرضية الحمام ويقع بجواره وهو يكاد يغيب هو الآخر عن الوعي، يعاني من الألم الذي بدأ ينهش قلبه نهشًا، لكنه على الرغم من ذلك تخلّص من شعور الضيق الذي كان ينتابه.

تدخل عليهم.. تنظر إليهم فاغرة الفم مندعشة ثم تصيح: ماذا حدث؟!

ينظر إليها و يقول وهو يلهث: «دائما تأتي متأخرة يا أمينة»

في المستشفى كان يرقد في حجرة وفي الحجرة المقابلة كان يرقد ابنه (علي) بعد أن أفاق من غيبوبة السكري الذي ورثه عن أمه.

أمه (أمينة) التي خطفها الموت في مقتبل عمرها بسبب السكري وتركته وحيدًا مع أبيه.

قال له صديق والده: «صحيح أن الألزهيمر قد يجعل الإنسان ينسى كثيرًا من الأشياء والأشخاص، ولكنه لا يجعله ينسى عواطفه..

إن قلب أبيك هو الذي أنقذك يا علي، قلب أبيك هو الذي حرَّكه بالأمس ليخرج من دار المسنين ليأتي كي ينقذك من الموت غرقًا داخل البانيو بعد أن داهمتك الغيبوبة في الحمام..

لقد كان في حالة غير طبيعية عندما خرج بالأمس كان منظره مريبًا، عرفنا أن شيئًا ما يقلقه.. لم يتعرّف علينا كعادته عندما يستيقظ من النوم وقليلًا ما كان يتذكرنا، وكنا قد اعتدنا على ذلك، حاولت الحديث معه وإنعاش ذاكرته.. لكنه لم يسمع لي ودفعني وخرج، عادةً لا يخرج لوحده.. قلقت عليه وحاولت الاتصال بك فلم ترد، فخرجت وراءه وذهبت إليكم في البيت؛ وهناك وجدت زوجتك تقف مذهولة أمامك وأمامه وهو يكلمها على أنها أمينة أمك..

ما زال عقله لا يذكر إلا أمينة زوجته التي كانت كل حياته و«علي» ابنه الصغير الذي أصبح بعد وفاتها باقي حياته..

لكن علي كبر وتزوج ولم يطيق هو وزوجته العجوز الذي أصبح طفلًا، ونسي أنه كان يومًا ما أكثر طفولة أكثر إزعاجًا ولكنه لم يتبرّم يومًا منه.

«بعد كل هذه السنين وبعد كل ما فعله من أجلك بعد وفاة أمك تركته وحيدًا بدار المسنين»

تتحجر دموع الندم في عين «علي» ولا يستطيع أن يحرك شفتيه، ويستطرد صديق والده قائلا:

«لقد كانت مأساة موت أحمد أخيه الوحيد تنغص عليه حياته لولا وجود أمك في حياته، ولما ماتت أصبحت أنت السلوى الوحيدة

الباقية له عن فقد الأثنين، وعندما بدأ الألزهيمر يهاجم عقله عادت مأساة موت أحمد تطفو من جديد، خصوصًا بعدما أصبح طول الوقت وحيدًا في الدار.. لا أحد يعرف سر العواطف الإنسانية.. لا أحد يستطيع أن يفسر كيف شعر أنك تواجه خطرًا ولماذا ترك الدار وجاء إليك كي ينقذك وهو يعتقد أنه ينقذ أخيه الذي غرق منذ أكثر من خمسين عامًا مضت..

لكنه القلب يا علي لا يغرب عندما يغرب العقل، والعاطفة ستظل هي بوصلة الآباء التي لا يصيبها شيخوخة ولا تفقد أبدًا اتجاهها».

تمت

لاوكون

بدأت القمم الثلجية في الذوبان من على السلاسل الجبلية الشامخة وانحدرت كتل الثلج لتغطس في بحر الروم، وجرت المياه على سطح الأرض مخلفة بساطًا أخضر من الكلأ وسطحًا لامعًا كالفضة من انعكاس ضوء الشمس على التجمعات المائية هنا وهناك، واحتضن دفء الشمس المدينة وبعث في أرجائها الحياة.

وبعد أن قضى الرهبان معظم نهارهم وهم يساعدون رجال المدينة في جرف الثلوج المتراكمة على الأسطح ومن أمام البيوت، ويعززون نقاط المقاومة ويوزعون الطعام على الجنود المرابطين علي أطراف المدينة في حصونهم، ويمدونهم بالحطب والنار من أجل التدفئة ليلًا، اتجهوا إلى حجرة اجتماعهم بعد أن سحبت الشمس آخر شعاع لها من على سطح الأرض، ومع أن النهار كان ينبئ عن ربيع دافئ، إلا أنهم بمجرد أن أغلقوا النوافذ وبدأوا حديثهم حتى قطع الحديث دوي الرعد وتساقط البرد على جدران الدير ونوافذه الزجاجية التي تلونت بأجمل الزخارف والرسومات، قال أحد الرهبان:

«ليلة أخرى لن يكون فيها قتال ستمنع العاصفة جنود الأعداء من محاولة اقتحام المدينة، إن الرب معنا»

رد آخر:

«عشر سنوات الآن لم ينجحوا مرة واحدة في اقتحام المدينة بسبب معونة الرب»

وقال ثالث:

«ولكن إلى متى سنظل هكذا مُحاصَرين، لقد بلغ بالجنود التعب وأصيب الأهالي بالملل والضيق والتبرّم من الحبس داخل المدينة وقلة الموارد وضغط النفقات

رد رابع:

لقد فشلت كل مفاوضات الأمير «هيكتور» أمير طروادة مع القائد «أوديسيوس» لفض هذا الحصار إن «أوديسيوس» يأبى أن يترك طروادة قبل أن ينتقم من فعلة الأمير «بارس»

فتدخَّل خامس في الحديث:

لولا أن الأمير هكتور مقتنع بموقف بارس بزواجه من هيلين ملكة «أسبرطة « ما كان دعمه في هذه الحرب

فرد الأول

نعم، لكن الإغريق يعتقدون أن بارس خطف هيلين ويعتبرون هذه خطيئة لا تُغتفر، يريدون أن يدفع الطروادیون كلهم الثمن.

قال الثاني:

لا إنهم يحتجون بهذا، فقد جاءت هيلين باختيارها إلى طروادة حبًا «لبارس»، الإغريقيون شعب مستعمر يريد أن يضم مدينة طروادة إلى حكمهم، أتعرفون ماذا يحدث إن هم نجحوا يومًا في دخول المدينة؟.. سيستعبدوننا أو يلقون بِنَا طعامًا لسباعهم.

رد لاوكون أكبر الرهبان:

حمدًا للإله على عدم تمكنهم من ذلك.. إن بطولة الجنود وبسالة الشعب تؤكد وعيهم لهذا الأمر، لم تعد الحرب حرب انتقام ولا دفاع عن النفس، إنها حرب مصيرية من أجل أن نحتفظ بحريتنا والأمير هكتور مقتنع بذلك تمامًا.

رد الثالث:

لكن إلى متى لقد طال الأمر وزاد عن حده، عشر سنوات ليست بالمدة الهيّنة لقد نسينا معنى الحرية ونحن محاصريين هكذا

فرد لاوكون في غضب:

الحرية هي أن لا يتسلط عليك عدو حتى ولو كنت في قفص، وأن تملك قرارك حتى ولو كانت السلاسل تقيد حركتك، وأن تستطيع أن

تقول ما تريد حتى ولو كانت الأغلال في رقبتك، الحرية أن تكون حرًا وأنت تتعبد، أنسيت هذه هي وظيفتنا!!

نكس هذا رأسه وكأن لاوكون لطم وجهه بكلامه ثم رد بصوت مكسور: صدقت حكيمنا.

استطرد لاوكون قائلًا: لا أريد من أحد هذا الكلام الذي يدعو للخنوع ويؤدي إلى الهزيمة فلقد صمدنا عشر سنوات بفضل إيماننا بقضيتنا، إن هؤلاء الجنود بالخارج يبذلون جهدهم ويقدمون أرواحهم إيمانًا بما نقوله لهم فإن تسربت إليهم مثل هذه الكلمات سوف تسري الهزيمة في نفوسهم والأمير هيكتور يعول على دورنا الكثير من أجل ثبات الجيش والشعب.

كانت أصوات الرعد والعاصفة بدأت تهدأ وعاد السكون يحيط بالدير وبعد أن أنهى الرهبان اجتماعهم وصلاتهم، استأذن لاوكون للحاق بأبنائه في منزله حيث وعدهم بأن يخرج معهم في الصباح الباكر لكي يشاهد مرانهم مع بعض الجنود على مهارات القتال حتى يلحقوا بهم على الحدود ويكونوا من ضمن الصفوف الأولى في مواجهة الأعداء،

وما إن خرج لاوكون حتى نظر الباقون إلى بعضهم البعض في صمت..

إنهم يشعرون بمأساة حقيقية، لا بد وأن ينتهي هذا الوضع

قال ثالثهم قاطعًا الصمت:

ليس معنى أن نحاول التفكير في حلول أخرى لهذا الوضع أننا بدأنا نخضع ولكن إلى متي سنظل هكذا؟!

إنها عشر سنوات ياسادة..عشر سنوات لا نعيش حياة طبيعية كما كنّا سابقًا، لقد نسينا كيف كنّا نعيش أصلًا لقد هرمنا وكبر أبناؤنا في هذا الحصار، ويبدو أن أوديسيوس لن ييأس وهيكتور يعيش في قصره لا ينقصه شيء وبارس و هيلين يستمتعون بحياتهم والشعب مضغوط، إلى متى سيكون هذا الوضع إلى متى؟!

كان منفعلًا والباقي يسمعه وهم صامتون حتى أنهم لم يتبينوا أن هناك دقًا على باب الدير فظن المتكلم أن لاوكون سمعه من خارج الدير فعاد إليه.. فسكت على الفور وساد الصمت مرة أخرى إلا من الدق الذي كان على باب الدير وصوت حفيف أوراق الشجر بالقرب من نوافذ الدير..

فما لَبس أن تقدم أحدهم ليفتح باب الدير فإذا هو «سينون» يدخل إليهم متهللًا قائلًا: أسمعتم البشرى؟!

قالها وهو يقفل باب الدير وراءه ويفرك يديه من البرد ويدفس رأسه في بذته الإغريقية التي جاء بها من أسبرطة هربًا من بطش «مينلاوس»

خطيب هيلين الأسبق، ظنًا منه أنه تساهل في حراسة هيلين لأنه كان قائد حرس القصر، وتركها تهرب منه، لم يصدقه هيكتور ولاوكون في البداية، لولا أنه أظهر علامات التعذيب على جسده، وشفعت له هيلين عندهم، ما أبقوه يومًا بينهم، بل أن هيكتور نفسه كاد يقتله في بداية الأمر ولكن سبق حلمه غضبه فتركه يعيش بينهم داخل الحصار، وما لبث أن تعايش في المدينة، وزادت الثقة فيه بعد أن نقل لهكتور أسرارًا عن جيش أوديسيوس وعتاده، ولكن هكتور لم يأمن أن يجعله في وسط جنوده فعهد به إلى الرهبان ليكون وسطهم وتحت أعينهم.

تساءل أحد الرهبان: ما البشري التي جئتنا بها؟!

تقدَّم منتشيًا بعد أن سحب كرسيًا وجلس وهو ينفض عن بذته ما علق بها من قطرات المطر ثم قال: إن أوديسيوس قرر أن ينسحب وترك القائد تيندوس مكانه ليعقد معاهدة صلح مع الأمير هيكتور.

نظر الرهبان إليه وهم غير مصدقين لما سمعوه منه

وقال ثالثهم بصوت متهدج: ماذا تقول عن حق هذا أم أنك جئت تمازحنا!!

رد سينون:

إنه جد، أقسم لكم لقد رأيت رسول تيندوس يدخل القصر الملكي فتتبعت الأخبار فعرفت أنه جاء برسالة سلام من عند تيندوس، أنا

أعرف تيندوس إنه قائد حكيم يميل إلى السلام والتفاوض ولا يميل إلى الحرب، بل جاء الرسول يعرض علي الأمير هيكتور هدية سلام من أجل عهد جديد بين أهل طروادة والإغريق.

رد الراهب الأول: هدية، ماذا تعني؟!

رد سينون: في قانون روما أن يقدِّم الجيش عهد سلام للجيش المقابل إن مال إلى السلام وهذا العهد تكون هدية تعبّر عن عظمة الدولة وحضارتها، وقد عرض القائد تيندوس على الأمير هيكتور أن يقبل أكبر حصانًا خشبيًا على وجه الأرض بناه أعظم مهندسي روما «إبيوس»،

تهلل الرهبان بهذا الخبر وقضوا ليلتهم يتحاورون عن ما ستكون عليه الأيام القادمة.

وجاء الصباح بشمسه الدافئة وكان القصر يعج بقواد الجيش والرهبان مجتمعين في ساحة العرش أمام الأمير هيكتور الذي وقف يسمع أراءهم في عرض تيندوس، وبعد أن أدلى كلٌ بدلوه، بدا واضحًا أن الكل يرحب بعرض السلام ولكن لم يكن صامتًا إلا لاوكون، فنظر إليه هيكتور قائلًا: ما بالك لاوكون لم تتكلم بكلمة واحدة منذ أن حضرت!!

نظر لاوكون إلى الحضور واحدًا واحدًا نظرة متفحصة ثم توجه إلى منتصف الساحة قائلًا: أيها الأمير لا يخفى عليك من

هُم الإغريق!.. ولا يخفى عليك مطامعهم! فهل تصدق أنهم بهذه السهولة بعد عشر سنوات من الحرب والحصار يتقدمون بهدية السلام؟!، لا والله إن هذا الأمر لا يتقبله العقل والمنطق، إننا يا مولاي أصحاب الأرض وأصحاب الحق وهم المعتدون، فلماذا لا يرحلون ويتركونا في حالنا؟!

إن الأمير بارس لم يرتكب ذنبًا بحبه للأميرة هيلين، والأميرة هيلين لم ترتكب ذنبًا بزواجها منه، والهروب من الطاغية مينلاوس شقيق الإمبراطور الروماني المستعمر «أجاممنون»، فهل ترى أن هذا سببًا لكي يحاربونا عشر سنوات؟!

رد الأمير هيكتور: نحن نعرف يا لاوكون أنهم يطمعون في أرضنا من سنين وينتظرون الفرصة لكي يأخذوها منا ويستعبدوا شعبنا، إنهم يدبرون لذلك منذ قديم الأزل حتى سنحت لهم الفرصة واستغلوا الموقف، نعم نحن نعرف ذلك جيدًا

رد لاوكون والجميع ينصت له: إذًا ماذا جد؟! لا بد وأن في الأمر خدعة أن الروم لا ييأسوا ولا بد أن لا ننخدع بعرضهم.

صاحب السمو إليك أحب أن أعلن لك رأيي وأقسم لك أن الرب يبارك هذا الرأي، أنا لا أوافق علي قبول هداية منهم، وإن أرادوا الرحيل فليرحلوا في صمت ويتركونا في ديارنا وسط أهلنا، وإلى أن

يفعلوا هذا سنظل مرابطين مستعدين لهم، استئذنك مولاي فأولادي بشاطئ البحر يقومون بالتدريب على فنون الحرب، ولقد وعدتهم بأن أذهب لأباركهم قبل أن يلتحقوا بالجنود في ساحة القتال على حدود المدينة.

واستدار لاوكون خارجًا وترك الجمع وراءه يهمهمون وما إن خرج حتى تحدَّث الراهب الثالث قائلًا: مولاي إنني لا أرى غضاضة في أمر دعوة السلام، نحن قوم محبون للسلام وربما طال عليهم الأمد فيأسوا من دخول مدينتنا وعزَّ عليهم أن يعودوا مهزومين، لقد أكد لنا سينون أن القائد تيندوس يميل إلى السلام، ليس مثل أوديسيوس وأن تقديم هدية سلام عهد عندهم فلماذا لا نمد أيدينا لمن يمد يده بالسلام؟

فرد الأمير هيكتور: صدقت.. لكن لو لم نكن نعرف طبيعتهم وعهدهم وغدرهم.

صدقت لو لم يمت منا في حرب دامت عشر سنوات خيرة أبناءنا وجنودنا، صدقت..

لكن يجب أن نتأكد من صدق نواياهم وعدم وجود خدعة في الأمر.

رد الراهب الثالث: كيف يكون في الأمر خدعة وقد رحل أوديسيوس برجاله عائدًا أدراجه.. إن الشواهد تؤكد أنه غير راضي

عن أمر السلام معنا لذلك رحل وترك أرض المعركة لمن هو أهل لهذه المرحلة الجديدة في سياسة الروم معنا.

كان الأمير في حيرة من أمره، لا يدري هل يسمع إلى رأي لاوكون ونصيحته، أم لرأي هؤلاء الرهبان الذين يميلون للسلام، أنه لا يكره السلام ولكن لاوكون رجلًا حكيم.. وغالبًا ما يصدُق في أرائه، فهو أكثر الرهبان صدقًا في تدينه ووطنيته وإن شكك في هذا بقيتهم فإنه يرى في ذلك غيرة منهم وحقدًا عليه لشدة ورعه وصدقه.

وبينما هُم في البهو والنقاش محتدم، إذا بأحد الجنود يدخل مهرولًا مزعورًا إليهم:

مولاي.. ياللهول يا مولاي يا للهول!!

سكت الجميع وهم ينظرون إلى هذا الجندي المزعور الذي اقتحم عليهم جمعهم دون استئذان حتى سأله الأمير هيكتور:

ما بك أيها الجندي أي مصيبة جئت بها إلينا؟!

جثى الجندي أمام الأمير وهو يلهث ويطل من عينيه زعر شديد وتختلج فرائصه كأنه رأى توًا شيطان، وقال بصوت متقطع الأنفاس متهدج:

الراهب لاوكون.. الراهب لاوكون وأولاده!

رد الأمير وهو يستند على مسندي كرسي العرش ليقف: ماذا أصابهم أيها الجندي؟!

ماذا حل بهم؟!

زرفت عيني الجندي بالدموع وغطي وجهه بيديه كمن يريد ان يمنع منظرا في مخيلته ثم قال:

لقد كان أولاد لاوكون علي شاطئ البحر وكنت أقوم بتدريبهم علي بعض فنون القتال حتي لحق بِنَا الراهب لاوكون منذ قليل وعندما انتهينا وقف الراهب لاوكون وظهره للبحر وولديه جثيا أمامه وحنيا رأسيهما تحت يديه ليباركهما قبل أن ينضموا إلينا في ساحة القتال فإذا..

فإذا بثعبان بحري ضخم يخرج من داخل البحر ويلتف حولهم في سرعة خاطفة وأخذ يعتصرهم وهم يقاومون، كان الأمر سريعًا كلمح البصر وكان حجم الثعبان مهولًا لم يؤثر فيه مقاومتهم ولا طعن سيوفهم ولم يستطيعوا الإفلات من خناقة بقوة عضلاتهم،كان الأمر مهولًا، لقد فتت الثعبان بقوة عضلاته عظامهم وأوهن قواهم، لم يطلق أحدٌ فيهم صرخة ولم ينبث بشفة ألم رغم أن الألم الشديد كان يرتسم على وجوههم كان يبدو ألمًا لا يطيقه بشر، فلما خارت مقاومتهم قام بسحبهم معه إلى قاع البحر..

ساد صمتٌ ووجوم على الجميع، وخَرَّ الأمير على كرسيه واضعًا رأسه بين كفيه..

استمر الصمت ولم يقطع هذا الصمت إلا كلام الراهب الثالث:

مسكين لاوكون، من يظن أن يحدث مثل هذا لكبيرنا لاوكون هو وأبناءه...

مولاي من موقفي هذا أحب أن أقول لك أن ما حدث هذا ما هو إلا رسالة من الرب، لطالما خدعنا لاوكون بورعه وادعائه لوطنيته وحبه للبلاد والعباد، لكن الحقيقة إنه ما كان إلا ساعيًا لمجد شخصي أنه كان يُعد أولاده لقيادة الجيش والاستحواذ على المدينة بعد أن أرهقتها الحرب وجرفها الحصار لمدة عشر سنوات، ولما استجاب الرب لدعائنا نحن المخلصين فأنزل في قلوب أعدائنا الاستكانة والخوف منا، فمالوا إلى السلام أبى إلا أن يؤجج نار الحرب ويجعلها مستمرة، لأن في ذلك مصلحته ومصلحة أبنائه، وها هو الرب يا مولاي ينزل به عقابه ويرسل جندي من جنوده ليخلصنا منه، وها هي الرسالة الربانية لكي نلبي داعي السلام ونقبل هدية السلام.

وقع هذا الكلام على قلوب الحاضرين وقع السحر ولم يستطع الأمير أن يتفوه بكلمة بعد قوة هذا المنطق وميل الجميع بعد أن أقنعهم الراهب الثالث بقبول حصان طروادة الخشبي.

انقضت الأيام القليلة التي تلت هذا الحادث في ترتيبات قبول هدية السلام، وانتشر بين الشعب والجنود خبر لاوكون الكاذب المخادع الذي كان وراء الحرب دون أن يدري أحد لكي يبقى مسيطرًا على المدينة بوضعه المقدس، ولكي يزج بأبنائه إلى قيادة الجيش، وكيف كانت رسالة الرب أسرع من تخطيطه.

عمّت حالة من السعادة والابتهاج بين أهل المدينة لانتهاء فترة الحصار الذي دام عشر سنوات، قضوهم في استبسال وحرب وتقشف لقلة الموارد وكثرة الضرائب لتموين الجيش ودعم المرابطين.

و حلَّ المساء وأُقيم حفلًا عظيمًا ابتهج فيه الطرواديون لحلول السلام ودخل الحصان الخشبي يجره الجنود من ورائهم إلى وسط المدينة، وتعجب الشعب والجنود والرهبان وحاشية القصر منه، كان بناءً ضخمًا وتحفة فنية مبدعة، وانقضت تلك الليلة في الرقص والشرب والأكل حتى نام الجميع من السعادة والتعب، وعندما أسدل الليل ستارته الظلماء على المدينة، تقدّم «سينون» من الحصان في خفة وهو يتخفى وفتح بابًا سريًا في بطنه، فإذا بالجنود الرومان يخرجون من داخل الحصان الخشبي وينتشرون بأنحاء المدينة ويدخلون القصر ويحتلون طروادة كلها

واستيقظت الشمس على الأمير هيكتور ورجاله وهم أسرى،

وكان أوديسيوس يعتلي عرش طروادة وجنودها كلهم أسري مُكبلين بالسلاسل والأهالي مندهشون لوضعهم بعد ما استسلموا للجنود الرومان الذين انتشروا في كل أنحاء المدينة.

وقف أوديسيوس رافعًا رأسه وبارك سينون والراهب الثالث ليكونا نائبيه في حكم المدينة.

تمت

سر الدكتور

لم يكن يعرفه أحد في هذه المدينة الصغيرة على حدود العاصمة، فقد وفد إليها بناءً على الإعلان الذي قرأه في الجريدة عن احتياج مركز طبي في هذه المدينة لأطباء تخصص علاج طبيعي، ولم يجد مشقة أن يصل إلى هذا المركز الذي يديره العقيد المتقاعد عماد زوج الدكتورة ليلى والتي كانت تمتلك المركز وتدير المعمل الخاص به.

وعندما دخل مكتب العقيد عماد وجده رجلًا في العقد الخامس من عمره يتمتع بجسد قوي رياضي وبشرة بيضاء وشعر أسود يتناثر في وسطه بعض الشعيرات البيضاء ويتوسط مكتبًا فخمًا، ويدخن نوعًا مستوردًا من السجائر، وعندما أطّلع على الملف الذي يحتوي على سيرة الدكتور عزيز وشهاداته وسأله إن كان يعمل في مكان آخر، أخبره أنه قد جاء مؤخرًا من أمريكا حيث كان يدرس هناك، وأنه قد قرر أن يعتزل العمل منذ عام حيث واجه صدمة عنيفة بسبب حادث سيارة بالساحل فقد على أثره زوجته وابنه فأصيب بحالة من الاكتئاب الشديدة وغادر البلاد إلى أمريكا حيث قضي هناك عاما يدرس.

ثم عاد بعد أن اجتاز هذه الحالة الصعبة وقد عقد العزم أن يكرّس وقته لخدمة المرضى ومساعدتهم بما اكتسبه من علم وخبرة في مجال العلاج الطبيعي، وتأثر العقيد عماد كثيرًا بمأساته وتعاطف معه وقرر من توه أن يكون الدكتور عزيز هو دكتور المركز الطبي في هذا التخصص، واتفقا على مواعيد العيادة، وتفقَّد بعدها عزيز إمكانيات العيادة حيث صرح أنها مبدئيًا إمكانيات مقبولة وإن كان سيحتاج إلي المزيد من الأجهزة والآلات التي سوف يحتاجها في عمله.

بدا الدكتور عزيز للعقيد عماد رجلًا وقورًا تجاوز الأربعين بقليل، يرتدي نظارة طبية ويهتم بأناقته، ليس بالطويل ولا القصير، ممتلىء بعض الشيء، ذو صوت هادئ ولكنه حاد بعض الشيء، لا يتكلم كثيرًا كما اكتشف أنه يدخن نفس نوع السجائر التي يدخنها.

بدأ الدكتور عزيز عمله من اليوم التالي، وقد قام العقيد بعمل إعلان في مدخل المركز بوجود أخصائي علاج طبيعي، وبدأ بتجهيز «يافطة» مضيئة ليعلقها على واجهة المركز الذي كان يتكون من ثلاثة أدوار، يحتوي الدور الأول على عيادة باطنية وعيادة أمراض العظام، وعيادة أمراض جلدية وعيادة العلاج الطبيعي، والتي يلحق بها حجرة بها بعض الأجهزة الخاصة بالعلاج الطبيعي، ويتوسط الدور صيدلية صغيرة يقوم على إدارتها الدكتور أيمن، والدكتور أيمن ليس

صيدليًا ولكنه خريج كلية علوم ويعمل في مركز البحوث صباحًا ويدير الصيدلية مساءً لزيادة دخله، وترجع الصيدلية لملكية دكتور نور أحد الصيادلة المشهورين في المدينة.

والدور الثاني كان يحتوي علي معمل وحجرة لعمل الأشعة السينية وحجرة لعمل الأشعة التليفزيونية وعيادة جراحة وعيادة أنف وأذن وحنجرة.

أما الدور الثالث فكان يحتوي على عيادة لأمراض العيون وعيادة للأسنان وحجرة لإجراء بعض الجراحات الصغيرة، ويتوسط الدور مكتب مدير المركز.

وكان الأطباء الذين يعملون في المركز من أماكن مختلفة، وكان الإقبال على المركز متفاوت، فأحيانًا يكون مزدحمًا بالمرضى في مختلف تخصصاته، وأحيانًا يعاني من الركود، إلا أن التخصص الذي قلما كان يخلو من توارد المرضى هو تخصص الأمراض الباطنية الذي كان يتعهده الطبيب الشاب أسامه، والذي كان يتمتع بسمعة طيبة لِما له من مهارة وخبرة رغم صغر سنه كما كان يتمتع بقبول وعلاقة طيبة مع مرضاه وزملائه.

عرف كل العاملين بالمركز بقدوم طبيب جديد للعلاج الطبيعي بعد أن ظل المركز عدة أشهر بدون طبيب، وذلك بعد أن سافر آخر

طبيب عمل فيه إلى إحدى دول الخليج، ولكن لم يتثنى لأحد من العاملين من التعرف على الدكتور عزيز شخصيًا ومقابلته حيث كان يلتزم بوقته وكان لا يغادر عيادته في أوقات فراغه كما كان يفعل معظم الأطباء الآخرين، حيث كان يحلو لهم أن يجتمعوا في الصيدلية عند الدكتور أيمن إذا تثنى لهم ذلك، في عدم وجود مرضى قبل ساعات الذروة، يتبادلون أطراف الحديث ويحتسون أكواب الشاي والقهوة.

وبدا لهم الدكتور عزيز إنسان انطوائي لا يميل إلى التعارف وإقامة علاقات صداقة مع الآخرين، فكان يدخل في صمت ويقوم بعمله ويغادر في صمت وقد أعزوا هذا السلوك لحكاية مأساته التي عرفوا بها من الممرضة سوسن، والتي كانت تدير التمريض بالمركز وتتمتع بعلاقة قوية بالعقيد عماد حيث كان يظن الجميع أنها ليس مجرد رئيسة التمريض بل أنها عيون للعقيد بالمركز.

***

كانت خفة دم الدكتور أيمن مدير الصيدلية وروحه الجميلة في تعامله مع جميع الأطباء العاملين بالمركز سببًا في أن يتحول المكتب الصغير الملحق بالصيدلية إلى نقطة تجمُّع والتقاء للعاملين بالمركز، وأيضًا فرصة للتعارف وتبادل الآراء ومعرفة الأخبار الجديدة سواء كانت أخبار عامة أو أخبار تخص المركز والعاملين فيه.

كان العمل الرسمي بالعيادات يبدأ من الساعة الرابعة مساءً ولكن ذروة العمل الحقيقي كانت تبدأ بعد الساعة السابعة؛ ولذلك كانت هناك أوقات كثيرة تسمح للأطباء بالاجتماع عند أيمن وشرب فنجانًا من القهوة أو كوبًا من الشاي من يد أم محمد العاملة بالمركز، وبحكم أن أيمن كان أقدم الموجودين بالمركز، فكان علي دراية وعلم بالكثير عن حياة العقيد عماد وزوجته الدكتورة التي كانت تتمتع بسمعة طيبة، حيث أنها تنتمي إلى واحدة من أكبر العائلات المعروفة بالمدينة، كما أنها كانت جميلة الخلق والخلقة ذات شخصية قوية ومتميزة في عملها.

وقد ورثت المركز الطبي عن والدها الذي كان طبيبًا مشهورًا أنشأ هذا المركز ليكون مشروع حياته وسندًا لابنتيه الدكتورة ليلى وأختها الدكتورة نشوى، إلا أن نشوى قد تزوجت وهاجرت مع زوجها إلى كندا، فلم يبقَ أمام ليلى إلا ان تأخذ على عاتقها مسئولية إدارة واستمرارية المركز، وساعدها كثيرًا في ذلك زوجها العقيد بعد أن تقاعد من عمله بالجيش مبكرًا ليقوم هو بإدارة المكان وتتفرغ هي للعمل في المعمل.

وكان العقيد يعتمد في إدارته على خلفيته العسكرية، فكان صارم القرارات شديد وحازم، ولكنه كان كثيرًا ما يصطدم بطريقته هذه مع

العاملين، وخصوصًا الأطباء لأنه لم يتعود إلا على إعطاء الأوامر، ولم يكن يتفهم طبيعة عمل الأطباء الذين كان معظمهم مرتبط بشكل أو بآخر بالعمل في مستشفيات حكومية، فتضطرهم ظروفهم أحيانًا للتأخر عن مواعيد العيادات، أو عدم الحضور.

وكانت الدكتورة ليلى هي الحل دائمًا إذا نشب اختلاف في وجهات النظر بين زوجها وأحد الأطباء في المكان، وإن كان أحيانًا كثيرة تتملكه طبيعته العسكرية فيأخذ قرارات تعسفية بدون الرجوع أو النظر لرأي الدكتورة ليلى، وهذا ما كان يؤدي إلى ترك كثير من الأطباء العمل بالمركز لعدم توافقهم مع أسلوب العقيد في التعامل.

وكان العقيد يعتمد على الأستاد نظمي المحاسب المالي للمركز في أن يكون حلقة الوصل بينه وبين العاملين، حيث يوصل من خلاله أوامره وقراراته ويعتمد علي سوسن رئيسة التمريض في جمع المعلومات ومعرفة الحوارات والأحاديث التي تدور بين الأطباء، ومعرفة كيفية سير العمل وإلى أي مدى يكون الإقبال على العيادات المختلفة ومَن مِن الأطباء يكتسب سمعة طيبة ويُقبِل المرضى على عيادته.

وكان الطبيب أسامة واحدًا من هؤلاء الأطباء الذين يدرّون علي المركز مكسبًا معقولًا بسبب الإقبال على عيادته، ولذلك كان العقيد حريصًا على أن يستمر أسامة في العمل بالمركز، على الرغم

من أن أسامة كان كثيرًا ما يتخلف عن مواعيد عيادته بسبب التزامه بنوباطشيات عمل داخل المستشفى التي يعمل بها، كما أنه لم يكن يتعمّد أن يوجه مرضاه بشراء وصفاتهم الطبية من صيدلية المركز أو أجراء التحاليل الطبية في المعمل الخاص بالمكان.

كما كان يوصي ويوجه العقيد الأطباء لذلك، ولكن أسامة كان يرى في ذلك عملًا لا أخلاقيًا لا يتناسب مع مهنته ورسالته، فالمريض حر في المكان الذي يختاره لشراء علاجه أو إجراء فحوصاته ولا دخل للطبيب في هذا، وقد نشأت بين أسامة وأيمن صداقة على أساس أنهما كانا قد أمضيا أكثر من ثلاث سنوات في العمل سويًا داخل هذا المركز، وكان يتغير عليهما الأطباء من حين لآخر.

***

لم يمر على عمل عزيز بالمركز شهر واحد إلا وكان عدد مرضاه في ازدياد مطرد، لم يعرف أحد كيف كانوا يتواردون إليه ولا كيف عرفوا به بهذه السرعة الغير معهودة بوجوده، فمنذ الأسبوع الأول لعمله كان عدد المرضي المنتظرين للكشف عنده كبير، وكانوا يتحدثون فيما بينهم عن مهارته والنتائج الملحوظة من طريقته في العلاج، وفي مدينة صغيرة كهذه انتشر ت هذه السمعة انتشار النار في الهشيم، وازدادت ساعات عمله في العيادة فقد كان يأتي قبل

عمل كل العيادات ويستمر حتى منتصف الليل، وكان يعطي العمل كل وقته فقلما كان يراه أحدٌ من الأطباء الآخرين ولم يشاركهم ولو مرة واحدة في جلستهم عند أيمن في الصيدلية.

وأصبح عزيز نجمًا صاعدًا في سماء المدينة وأصبح الحجز لديه في العيادة في غاية الصعوبة لأنه قرر من كثرة ضغط الشغل أن يحدد عددًا محددًا للكشف في اليوم الواحد حتى يستطيع أن يعطي كل مريض حقه في العلاج. وخصوصًا أن العلاج الطبيعي يستدعي إجراء جلسات خاصة للمرضى على مختلف الأجهزة الخاصة بهذا التخصص، وبالتالي أصبح لدى عزيز لستة حجوزات تمتد لعدة شهور وهذا كان سببًا لارتفاع الدخل الذي يعود على خزينة المركز من وراء عيادة العلاج الطبيعي، وأصبح المركز يوميًا مزدحمًا بحالات الدكتور عزيز، مما استرعى انتباه الأطباء في التخصصات الأخرى وكان أسعد واحدًا بهذا هو العقيد.

ومن الوجوه التي أصبحت مألوفة في المركز في الأسابيع القليلة الأخيرة كان أستاذ زكريا صاحب أشهر صاغة في المنطقة، حيث أصبح زائرًا لعيادة العلاج الطبيعي شبه أساسي معظم أيام الأسبوع، ولأنه كان ينتظر معظم الْوَقْت لإتمام جلسات العلاج الطبيعي لابنه ريمون، فكان بطبيعة الأمر يدور بينه وبين معظم الأطباء بصيدلية

المركز حوارات مختلفة و يدعونه أحيانًا لشرب كوب من الشاي معهم، قال زكريا للدكتور أسامة:

لقد أعاد لنا الدكتور عزيز الأمل بعد أن كنّا قد دخلنا نفقًا مظلمًا من اليأس، فبعد عشر سنوات من اللف والدوران على أساتذة الطب في الجمهورية بابني الوحيد ريمون، لم يدلنا أحد على علاج ناجع، ولم يبشرنا أحد بإمكانية علاجه.

سأله أسامه ما مشكلة ريمون؟ أجاب زكريا:

منذ وُلِد اكتشفنا أنه لا يتحرك مثل الأطفال الطبيعيين وقد اختلف الأطباء في ذلك الوقت في تشخيصه إلى أن استقر رأي معظمهم أنه مصاب بمرض نادر يصيب العضلات بضعف وضمور، وأنه لم يصل علم الطب إلى الآن لعلاج يوقف تطور هذا المرض، وصدمَنا بعضُهم أنه مرضٌ ميؤس من شفائه، بل أن المرض يزداد خطورة كلما كبر الطفل حتى يصل إلى مرحلة قد تؤدي إلى وفاته.

ومنذ ذلك الوقت وأنا وأمه نعيش مأساة حقيقية فنحن نراه أمامنا يكبر يومًا عن يوم وتتعلق به قلوبنا وتتمزق ونحن نراه يعاني من عدم قدرته على الحركة الطبيعية مثل قرنائه من الأطفال، وكنّا نبكي ونموت كل لحظة، وفي نفس الوقت نتظاهر أمامه بالصمود حت نخفف عنه، ولا نشعره بمدى المأساة التي نعيشها ويعيشها

معنا، ويزيد الأمر سوءًا أننا ننتظر الموت ينزعه من بيننا في أي وقت، وبطبيعة الأمر قررنا أنا ووالدته أن لا ننجب طفلًا آخر لما عرفنا أن المرض قد يكون بسبب طفرة جينية وأن هناك احتمال كبير في أن يولد الطفل الآخر بنفس المرض.

شد كلام زكريا انتباه أسامة وأثار تعاطفه، وكان الحوار أمام أيمن الذي علق: ياله من مسكين

ونظر أسامه إلى أبو ريمون وسأله: وهل وجدتم الحل عند الدكتور عزيز؟

رد زكريا: وقد انقشعت من علي وجهه سحابة من الكآبة والحزن كانت قد غطت ملامحه وهو يحكي مأساة ريمون:

عندما سمعنا عن وجود د. عزيز بالمركز وسمعته في علاج الحالات الصعبة، فكرنا لعرض حالة ريمون عليه وعندما قام بالكشف عليه والاطّلاع على التحاليل والفحوصات الخاصة به، وتقارير طبية عديدة من ضمنها تقرير لدكتور أمريكي كان من ضمن فريق خبراء يزورون إحدى المستشفيات الخاصة بالعاصمة، فإذا بالدكتور عزيز يعترض على تشخيص كل هؤلاء، وقال إنه يعرف هذا الدكتور الأمريكي شخصيًا، فقد عمل معه في أمريكا واستعجب أن يكون تشخيصه مثل ما سبقوه وأكد لنا أن الأمل في شفاء ريمون

يراه رؤية الشمس في كبد السماء، فالأمر يحتاج إلى عقار خاص يتم حقنه بالعضلات بالإضافة إلي برنامج مكثف من جالسات العلاج الطبيعي قد تستغرق من عام إلى عامين، وسيستطيع بعدها ريمون من لعب كرة القدم مع قرنائه.

وقطع كلام زكريا نداء الممرضة حنان المسئولة عن عيادة الدكتور عزيز علي ريمون فقد حانت جلسة ريمون العلاجية، فخرج زكريا وترك أسامة يفكر في مأساته مع ابنه.

***

وضع أسامة السماعة أمامه على المكتب ونظر إلى الحاج إسماعيل وهو يقوم من على سرير الكشف ويتناول عصاه العاجية التي يستند عليها، ثم يتوجه ببطء وهو يجر ساقه اليسرى حتى وصل إلى الكرسي أمام أسامة الذي بدا غاضبًا وقال له:

أكيد رجعت تلخبط في الأكل ورجعت للتدخين ضغطك عالي جدًا اليوم عن الزيارة الماضية

رد الحج إسماعيل: إطلاقا يا دكتور، أنا لم أدخن سيجارة واحدة منذ أن عافاني الله وسلمت من موضوع الجلطة، ده أنا كنت قاب قوسين أو أدنى من الموت لولا فضل الله. صحيح خرجت من

الأزمة مصابًا بهذا الشلل، لكن الحمد لله كنت فين وبقيت فين، حرّمت خلاص، لا دخان ولا ملح.

قال أسامة وهو يتناول قلمه ويكتب على الوصفة التي أمامه:

إذا نراجع مع بعض آخر علاج ارتفاع ضغط الدم وصلنا إليه منذ آخر زيارة من شهر تقريبًا، أنا كنت وصفت لك نوعين من أدوية الضغط غير حبوب الأسبرين وعلاج الكولستيرول صحيح.

أجاب الحاج أسماعيل وهو يعتدل في جلسته:

هو في الحقيقة يا دكتور أنا التزمت بالعلاج لمدة أسبوعين لكن منذ بدأت جلسات العلاج الطبيعي عند الدكتور عزيز نصحني بأن لا أتناول أي حبوب للضغط وهو سوف يقوم بعمل جلسات خاصة تجعل الضغط ينخفض من تلقاء نفسه.

وضع أسامه القلم علي المكتب في غضب ظاهر:

كيف هذا؟! هو فيه كده يا حج إسماعيل!

رد أسماعيل:

أيوه ما شاء الله عليه الدكتور عزيز عنده حل لكل مشكلة

زاد غضب أسامة وقال:

يا حاج علاج ضغط الدم المرتفع لا يمكن إيقافه لأي سبب من الأسباب إن هذا في منتهي الخطورة أنك قد تصاب بجلطة أخرى.

قال الحج إسماعيل:

والله يا دكتور أسامة هو ده اللي حصل وبعدين فوق كل ذي علم عليم، ما قولك إذا كان هناك بالفعل مرضى كان عندهم ارتفاع في ضغط الدم وبفضل الله ثم جلسات الدكتور عزيز الضغط انخفض ولم يعودوا في حاجة إلى العلاج مرة أخرى، كما أن الدكتور عزيز قال لي أخر مرة كنت عنده منذ يومين أن ضغطي معتدل.

وعلى غير العادة، رد الدكتور أسامة على الحج إسماعيل بشكل فيه حدة:

بص يا حج أسماعيل أنا معرفش الكلام ده، أنت كده في خطر العلاج الذي أكتبه يجب أن تلتزم به أو لا داعي لأن تتابع معي، خليك مع الدكتور عزيز أتفضل.

وقدم له الوصفة منهيًا الكلام وقد تغيّر وجهه غضبًا، أخذ الحج إسماعيل الوصفة واستدار خارجًا وفي نيته أن لا يأتي مرة أخرى.

***

قام العقيد بعمل بعض التعديلات على المركز بناءً على الوضع الجديد فقد خصص الدور الأول بأكمله لتخصص العلاج الطبيعي ونقل باقي العيادات إلى الأدوار العليا، واشترى أجهزة جديدة،

وخصص ممرضتان للعمل مع الدكتور عزيز واختصت حنان بترتيب مواعيده وعمل الحجوزات للمرضى، وامتدت ساعات عمل الدكتور عزيز من الساعة العاشرة صباحًا إلى قرب منتصف الليل، لم يكن يرتاح خلالها إلا ساعة واحدة يتناول فيها غذاءً خفيفًا، أما باقي اليوم فكان يحتسي عدة فناجين من القهوة ولم يبقَ في الدور الأول مع مركز العلاج الطبيعي الجديد إلا صيدلية أيمن التي استمرت مركزًا يجتمع فيه الأطباء في أوقات فراغهم التي زادت في الآونة الأخيرة فقد بدا ظاهرًا أن مركز العلاج الطبيعي يكتظ بالمرضى، بينما يقل توارد المرضي في باقي العيادات حتي عيادة الباطنة.

لاحظ أسامة أن المرضى الذين بدأوا يتواردون على الدكتور عزيز متنوعون، فالمعروف أن تخصص العلاج الطبيعي يتعامل مع نوعية معينة من الأمراض وهي الأمراض التي تصيب العضلات والأعصاب كحالات الشلل وضعف العضلات نتيجة لأمراض عصبية أو نتيجة للإصابات كالكسور العظمية وحالات تيبس المفاصل والالتهابات الروماتيزمية، لكن الغريب أنه لاحظ أن هناك مرضى مصابين بأمراض في الكبد أو الكلي أو حتى بعض المرضى ذوي العاهات الخلقية كانوا من ضمن مرضى الدكتور عزيز.

كان رأي أسامة أن عزيز يستغل المرضى وحاجتهم إلى العلاج ليصنع من نفسه أسطورة، وعلى الرغم أنه لم يتحدث معه ولا مرة واحدة إلا أنه تصوره شخصية مستغلة تلعب على وتر حاجة الناس، وقد رأى أن أصحاب الأمراض المزمنة قد يأسوا من طول فترة العلاج فبعث فيهم أملًا كاذبًا لإمكانية التخلص من أمراضهم بأسلوب جديد، فبدأ يبيع لهم الوهم، فكيف يمكن للعلاج الطبيعي مثلًا أن يشفي مريضة كسالي وهي مصابة بشلل أطفال؟!

المحير في الأمر أن سالي كانت طالبة جامعية واقتنعت أن جلسات العلاج الطبيعي سوف تعالج قصر ساقها وسوف تسير بشكل طبيعي بعد ذلك لدرجة أنها لم تقتنع بكلام الدكتور نادر طبيب العظام عندما حاول إقناعها بشكل علمي أن ما وصلت إليه من نتائج بعد الجراحة التي أجرتها هي أقصي نتيجة ممكنة، إلا أنها اقتنعت بكلام دكتور عزيز ولم يقنعها كلامه.

كما اقتنع مرضى الفشل الكلوي والكبد أن في العلاج الطبيعي حلًا جزريًا لأمراضهم المزمنة.

قال أسامة: أحيانا يتعلق المريض بمن يبعث في نفسه الأمل ويصدقه، لكن المشكلة أن الأمر زاد عن حدود المنطق والعقل، هذا الذي يحدث ليس طبًا ولا ينتمي لأخلاقيات مهنة الطب.

رد أيمن: لكن الناس تصدقه ويدّعون أنهم يشعرون بتحسن والبعض يقول أنه شفي تمامًا من مرضه بعد أن استمر لعشرات السنوات يأخذ أدوية أثرت على معدته وكبده، وكما ترى فالعيادة تدر دخلا فوق التصور، ده غير العلاجات الخاصة التي يعطيها لمرضاه من لصقات طبية مستوردة لم نسمع بها من قبل، وحقن يقول أنه جلبها معه من أمريكا ولها نتائج كالسحر.

قال أسامة: لا أدري هو جهل أم ضعف لكن الذي أعرفه أنني لن أسكت عن هذا.

***

وصل لعلم العقيد أن هناك جدلًا دائرًا حول الدكتور عزيز بين أطباء المركز، وأن الكلام عن شبهة استغلاله للمرضى بدأ يكثر ويتردد هنا وهناك، وخشي أن ينتشر مثل هذا الكلام و يؤثر علي سمعة الدكتور عزيز وبالتالي يفقد إيرادًا لم يصل أي طبيب على مر تاريخ المركز لتحقيقه، كان كل ما يهم العقيد في هذه المرحلة توفير سبل الراحة ليستمر عزيز في عمله ولم يعد يهتم بأمر أي عيادة أخرى أو أي طبيب آخر، ونما في ظنه أن هذا الجدل ما هو إلا غيرة وحقد على نجاحات الرجل الذي استطاع في وقت قصير أن يكسب ثقة كل هؤلاء المرضى ويصبح أشهر طبيب في المركز، بل وأشهر طبيب في المدينة.

ولذلك اتخذ قرارًا حاسمًا وقد عمم هذا القرار عن طريق استاذ نظمي الذي بلّغ أيمن أن يمنع تجمُّع الأطباء عنده بالصيدلية وأن يلتزم كل طبيب بالتواجد في مكان عيادته طول فترة العمل، ولذلك تم غلق المكتب الملحق بالصيدلية.

أثار القرار غضب بعض الأطباء ومنهم أسامة والبعض لم يكترث بالأمر، مر أسامة أمام الصيدلية فوجد أيمن خلف شباك صرف الوصفات بالصيدلية فألقى عليه التحية وقال له:

هذا حظر تجول ولا قانون طوارئ يمنع تجمع أكثر من واحد!

رد أيمن مبتسمًا: لا هذا المركز الطبي العسكري.

قال أسامة: أعتقد أنني المقصود من هذه الأوامر يجب أن أتكلم مع العقيد.

قال له أيمن: لا داعي لتحميل الموقف أكثر مما ينبغي، العقيد يكن لك معزّة خاصة، لا تفسد علاقتك به، اهتم بمرضاك وعملك.

رد أسامة: لا أستطيع أن أعمل في مثل هذه الأجواء، لا أستطيع أن أرى وضعًا معوجًا وممارسة خاطئة لمهنة أخلاقية وأظل ساكتًا، إن الأمر يتجاوز المصلحة الشخصية، إن حياة كثير من المرضى قد تكون في خطر وذلك من أجل مكسبًا ماديًا.

وتركه واتجه إلى الدور الثالث حيث مكتب العقيد، وجده يشرب كوبًا من الشاي ومعه نظمي مدير الحسابات، فاستأذن للحديث معه فأذن له العقيد بترحاب وانسحب نظمي في هدوء خارج المكتب، قال أسامة:

لقد جئت أتكلم معك من منطلق ما يمليه عليّ ضميري، لقد عملت معكم في المركز منذ أكثر من ثلاث سنوات وتعرف مدى إخلاصي لعملي والمكان وحرصي على سمعة المركز

رد العقيد:

ونعم الأطباء حضرتك دكتور أسامة، الكل يشهد لك بذلك ونحن نعتز بوجودك بيننا.

قال أسامة: ولذلك أنا هنا الآن ، أريد أن أتكلم معك بشأن دكتور عزيز.

كان العقيد يتوقع كلام أسامة وأنه جاء يشن هجومًا على عزيز فتعمد أن يمدح عزيز قائلًا:

الدكتور عزيز من أنجح الأطباء وأشطرهم أكيد توافقني في ذلك أنه مكسب كبير لنا هدية من الله للمركز.

سكت أسامه لحظة ورجع بظهره في المقعد ثم قال:

المشكلة أنه يتدخل في تخصصات غير تخصصه مما قد يجعل المركز يفقد مصداقيته الطبية بين المرضى

قال العقيد:

كيف هذا والمرضى مبسوطين من نتائجه ولم يشتكِ أحد منه لا الأطباء ولا المرضى!

رد أسامة: العلاج الطبيعي لا يعالج أمراض القلب والضغط والكلي.

رد العقيد: والله يا دكتور أسامة أنا لا أفهم في الطب ولكن كل يوم فيه جديد في الطب، والدكتور قادم حديثًا من أمريكا والعهدة علي النتائج وهي إلى الآن في صالحه.

قضب أسامة جبينه فلم يكن يستسيغ هذا الكلام وقال:

لكني أنا أفهم طب وأعرف ما هو جديد وقديم ولا يستدعي أن أكون على دراية بما هو جديد في الطب أن أسافر إلى أمريكا، وأقول لك أنه لا يوجد في الطب بابًا لعلاج مثل هذه الأمراض بجلسات العلاج الطبيعي.

رد العقيد وهو يسحب ملفًا من درج مكتبه: انظر هذه صورة من شهادات الدكتور عزيز وسيرته الشخصية وخبراته في هذا المجال

فأعتقد أن طبيبًا بمثل هذه المؤهلات يدري ماذا يفعل، غير ذلك أكيد أنك تعرف ما يفعله الطب الصيني من علاج لأمراض عديدة عن طريق مجرد وخز للإبر في مناطق مختلفة من الجسم، فليس مستبعد ما يقوم به الدكتور عزيز، اسمع يا دكتور أسامة أنا أكثر حرصًا منك على سمعة المركز وإذا رأيت أن هناك خلل ما سأقوم بالتصدي له وأنا حريص عل استمراريتك معنا وأعرف أنك تحب المركز الطبي وتهتم بمصلحة مرضاك فأرجوك أن تستمر في اهتمامك بمرضاك وترك لي الأمور الأخرى.

ثم رن الحرس فدخلت أم محمد فقال: نسيت أسألك ماذا تحب تشرب ، عندي نوع بن مخصوص أم محمد بتعمل منه فنجان قهوة خرافي.

وصل لأسامة أن العقيد ينهي النقاش بأسلوب لبق، فقام أسامة وقال: لا مانع ولكني سأشربه في عيادتي التزامًا بأوامر سيادتكم الأخيرة.

ضحك العقيد قائلًا: لكن شرب القهوة في مكتبي لا يدخل ضمن هذه الأوامر.

فابتسم أسامة له ابتسامة متكلفة وهو يخرج من المكتب.

***

أصبح المركز الطبي تقريبًا مركزًا للعلاج الطبيعي وتحولت باقي العيادات فيه إلى عيادات ثانوية، وهذا ما جعل كثيرًا من الأطباء غير حريصين على الالتزام بمواعيد عياداتهم، ولم يهتم العقيد كثيرًا بمتابعة هذا الأمر وكانت هناك وجوهًا شبه مستديمة في عيادة الدكتور عزيز حتى أصبح العاملين يشعرون بالألفة لوجودهم، منهم زكريا وابنه ريمون وسوسن، بالإضافة إلى وجه جديد بدأ يلفت انتباه العاملين من التمريض والأطباء، وهو وجه مديحة سيدة في الأربعين من عمرها تتمتع بجمال ملحوظ ورشاقة وأناقة، تهتم كثيرًا بمظهرها، كانت تبدو بصحة جيدة ولكن كان يغطي وجهها مسحة حزن ملحوظة.

كان السؤال الذي بدأ يحوم حول مديحة ما هي المشكلة الصحية التي تعانيها مثل هذه الفاتنة التي تبدو بصحة جيدة تجعلها تلجأ إلى عيادة العلاج الطبيعي؟!

قالت حنان التي تحدثت مع السيدة فترات طويلة أثناء فترة انتظارها: الاستاذة مديحة أرملة غنية ورثت مالًا وفيرًا وعقارات من زوجها وهي تعاني من صداع مزمن أصيبت به بعد وفاة زوجها وفشل كل الأطباء في علاجه، ونصحها البعض أن تجرب العلاج عند الدكتور عزيز، والآن هي تشعر بتحسن ملحوظ بعدما بدأت جلسات العلاج.

أما زكريا فقد بدأ يمل من فترات انتظاره الطويلة مع ابنه ريمون فقرر أن يقوم بكشف طبي عند الدكتور أسامة بغرض الفحص العام وقياس الضغط لمجرد الاطمئنان، فحص أسامة زكريا جيدًا وقال له وهو يطمئنه على صحته :

لا أرى أي مشكلة عندك بحمد الله وضغط الدم ممتاز، لكن ليس هناك مانع من أن نقوم ببعض التحاليل الطبية لنطمئن على مستوى السكر والكوليسترول ووظائف الكبد والكلي، ثم سأله وهو يكتب التحاليل اللازمة: كيف ريمون الآن؟

رد زكريا: نحمد الرب.

استطرد أسامة في كلامه: كم مضى من الوقت وهو يتابع مع الدكتور عزيز؟

قال زكريا: تقريبًا ستة شهور

قال أسامة وهو ينظر لوجه زكريا: هل هناك تحسن في حالته؟

رد زكريا وقد ارتسمت على وجهه علامات عدم الرضا:

لست أدري يا دكتور أسامة، أنا شخصيًا لا ألاحظ أي تحسن في حالته، بل ربما العكس، لكن الدكتور عزيز يؤكد أن هناك تحسن يراه حسب قراءته لأجهزته الطبية ويقول شيء طبيعي أن لا نلاحظ

تحسن على مستوي العين المجردة، إلا أن عضلاته بدأت تتعافى والمسألة مسألة وقت لا غير

سأل أسامة وقد بدا عليه الاهتمام:

كم من الوقت وعدكم لكي يتحسن ريمون ويستطيع أن يكون إنسان طبيعي؟

قال زكريا: لقد قال أنه محتاج إلى برنامج علاجي لمدة عامين، ولكننا سنلاحظ النتيجة بالتدريج خلال العام الأول، لذلك لم أدفع سوي مائة الف جنيه نصف المبلغ الذي طلبه ثمنًا للبرنامج خلال عامين مع الأدوية من الحقن الخاصة المستوردة.

انتبه أسامة ثم قال له: لقد ذكرت لي أن الدكتور عزيز اعترض على التشخيص السابق لريمون والذي أقر به أحد الأطباء الأمريكان.

قال زكريا: نعم

قال أسامة هل تعرف ما هو هذا التشخيص؟

رد زكريا: إنه نوع من أنواع ضمور العضلات المناعي أعتقد أن اسمه العلمي «دوش» أو «دوشي» على ما أظن، على العموم التقرير يحتفظ به الدكتور عزيز في ملف ريمون عنده في العيادة.

قال أسامة: تقصد «دوشان مايوباثي»

رد زكريا: نعم أعتقد أن هذا هو اسم المرض.

قال أسامة: إذًا ما هو تشخيص الدكتور عزيز لريمون؟

رد زكريا: لا أتذكر لكني أعتقد أنه قال أنه نوع من أمراض ضعف العضلات وليس ضمور مناعي.

أخذ أسامة يفكر فترة، ثم وقف ودار حول المكتب وجلس على المقعد في مواجهة زكريا وتكلم بصوت خافت:

اسمع استاذ زكريا، لا أدري إن كنت بكلامي هذا سوف أصدمك أم لا، ولا أدري إن كان يحق لي أن أتحدث به إليك أم لا، ولكني أَجِد نفسي مدفوعًا بوازع من ضميري لأن أقول لك هذا الكلام.

انتبه زكريا لأسامة وأصاغ له السمع وقال: تفضل يا دكتور.

***

قامت حنان بتصوير ملف ريمون بالكامل من وراء دكتور عزيز وفِي سرية تامة بناءً على طلب دكتور أسامة وزكريا، فقد كانت تعمل في عيادة دكتور أسامة من قبل وتثق فيه وكان يثق فيها، وفي هذه الأثناء طلب زكريا من دكتور عزيز تقريرًا مفصلًا عن حالة ريمون، حيث أخبره أنه يحتاج إلي هذا التقرير لتقديمه إلي جهة عمل زوجته ليسمحوا لها بالقيام بأجازة بدون مرتب للاعتناء بريمون ومصاحبته في جلسات العلاج الخاصة به، وقد وعدهم زكريا بإعداد التقرير وتجهيزه.

مضى يومان قبل أن يعطي عزيز زكريا تقريره عن حالة ريمون، توجه زكريا بالتقرير إلى عيادة أسامة على أساس أن له استشارة طبية لعرض نتيجة التحاليل التي طلبها أسامة منه.

وعندما أعطاه التقرير الذي كتبه عزيز، أخرج أسامة صورة التقرير الذي كان يحتفظ به عزيز في مكتبه والذي كان قد كتبه البروفيسور الأمريكي عن حالة ريمون واعترض عليه عزيز لأنه تشخيص خاطئ، وضع التقريرين أمامه على المكتب ووضع كفيه عليهما ورفع رأسه إلي زكريا قائلًا:

أستطيع الآن آسفًا أن أقول لك أن شكي في محله يا أستاذ زكريا.

قال زكريا: ماذا تعني يا دكتور أسامة؟

قال أسامة: إن التشخيص الأول لريمون تشخيصًا سليمًا ويؤسفني أن أقول ذلك لك ولكن هذه هي الحقيقة، ولكن مرض ضمور العضلات المناعي لا يوجد له في الوقت الحالي علاجًا ناجعًا، والعلاج الطبيعي وسيلة للحفاظ على وضع العضلات وتأخير ضمورها ولكنه لا يشفيها.

قال زكريا: وماذا عن تشخيص الدكتور عزيز؟

قال أسامة: الدكتور عزيز لم يشخص شيئًا، لقد استغل حاجتكم إلى أي أمل فباع لكم وهمًا، والدليل هذا التقرير الذي كتبه.

أنه نسخة من تقرير البروفيسور الأمريكي لقد نسخه عزيز وذلك لأنه ليس لديه تشخيصًا آخر لمرض ريمون العجيب، أن طريقة النسخ تدل على أن من نسخها لا يعرف اللغة الإنجليزية بل لا يعرف شيء عن المصطلحات الطبية، إنه أقرب لشخص رسم الحروف ونقلها، فلم يستطع أن يدرك أنه يكتب مصطلحات طبية فنسخها بشكل خاطئ أفقدها معناها.

قال زكريا: ماذا تقول يا دكتور هل نصَب عليّ الدكتور عزيز؟!

قال أسامة: ربما يكون نصب علينا جميعًا.

توجه زكريا والغضب يتطاير من عينه إلى مكتب العقيد، عرض عليه الأمر وهو يتوعد أن يبلغ الشرطة ويفضح عملية النصب التي تعرّض لها إن لم يأخذ ما دفعة من مال دون أن ينقص جنيه واحد، هذا غير أنه سيرفع قضية على المركز.

انزعج العقيد من هذه الثورة العارمة التي دخل بها زكريا عليه وأغلق المكتب واستدعى نظمي، وحدث نوعًا من اللغط داخل المركز ولكن اختفت الأصوات العالية بعد قليل واستطاع العقيد من امتصاص غضب زكريا ووعده بأن يعطيه كل ماله إن تبيّن صدق كلامه، وأكد له أنه سيتحرى الأمر جيدًا وسيستخدم سلطاته للوصول للحقيقة كاملة.

وبالفعل خرج زكريا من المركز بعد أن أخذ ضمانات كافية بعودة حقه، وحرص العقيد أن لا يتحدث أي إنسان في هذا الأمر.

ترقّب أسامة الأحداث من بعيد، وغمز له أيمن بعينه عندما رأى زكريا يغادر المركز مع ابنه ريمون.

استمر عزيز في عمله لمدة أسبوع بعد هذا الموقف إلا أن زكريا لم يعد إلى المركز منذ ذلك اليوم، وفي الأسبوع التالي اختفى عزيز فجأة ولم يعد يأتي إلى المركز وكان المرضى يسألون عنه، فتجيب حنان أنه في مؤتمر بأمريكا لا تدري متى سيعود وتعدهم بأنها ستتصل عليهم بمجرد أن يعود لترتب مواعيد العيادة.

وكثرت الإشاعات والأحاديث بعد اختفاء عزيز، فمن قائل أنه هاجر إلى أمريكا ومنهم من قال أنه اختلف مع مدير المركز ولم يدرِ أحد عن مصيره شيء حتى الدكتور أسامة.

إلا أن أسامة شعر براحة ضمير لأنه كان سببًا للتخلص من هذا الرجل.

ولم يكن يعرف الحقيقة كاملة إلا العقيد الذي اكتشف بعد زيارة زكريا له وتوجهه إلى نقابة الأطباء للتحقق من شهادات الدكتور عزيز، أنه ما هو إلا نصاب حاصل على دبلوم تجارة، وقد احترف النصب وتمثيل دور الطبيب وأن كل هذه الشهادات مزورة، لقد خدع الجميع، فعندما التحق بالمركز كان يستأجر أفرادًا ليقوموا بتمثيل دور مرضى مقابل مبلغًا من المال حتى يعطي انطباعًا بمهارته وقدرته على العلاج، ويصنعوا له

صورة وهمية بأنه طبيب فوق العادة، فكانوا يتعمدوا الحديث عن مهارته في العلاج فيما بينهم طوال فترة انتظارهم خارج العيادة، وبذلك نشأت شهرته، ثم بدأ في استغلال الضعف البشري لمرضاه أمام آلامهم ومعاناتهم، كما استغل جهلهم وبحثهم عن أي أمل حتى ولو كان كاذبًا أو غير منطقي للتخلص من معاناة الأمراض المزمنة.

وطبعًا كان كشف هذه الحقيقة في وقتها قد يكون له أثرًا سلبيًا على سمعة المركز الطبي، ولذلك كتم العقيد هذه الحقيقة وأشاع أن عزيز عاد إلى أمريكا ليحتفظ المركز بسمعته، خصوصًا أن عزيز اختفى تمامًا بعدما عرف بانكشاف أمره.

الطريف في الأمر أن الوحيدة التي كانت تعرف أين ذهب عزيز كانت مديحة الأرملة الفاتنة، التي سمعت عن عزيز الطبيب الغني الذي فقد زوجته وابنه وجاء من أمريكا بمال وفير فسوّل لها الطمع أن توقعه في شباكها وأدّعت له أنها أرملة غنية فطمع بالتالي هو أيضا فيها وتزوجها، وبعد أن دخل بها اكتشف أن مديحة ما هي إلا ابنة صاحب القهوة البلدي التي تقع في نهاية المدينة، وأنها أرملة بالفعل، أرملة ولكن ليس للمليونير كما أدّعت، ولكن أرملة لمكوجي، وأنها لا تملك من حطام الدنيا جنيهًا واحدًا.

تمت

غرزة معلم

كان يقف علي يمين المنضدة الطويلة ووجهه يختفي وراء القناع وكل رأسه مُغطى بغطاء أزرق مُحكم، بدأ الصوت المنتظم الذي لا يسمع غيره في أنحاء الغرفة يتغير ويفقد انتظامه ودوى صوت كصوت إنذار رفيع ومزعج، وبدأت حبات عرق تتجمع على جبينه، مد يده بسرعة وبدون أن يتكلم أو ينظر بجانبه، وضعت في متناول يده الممرضة التي كانت تقف على يمينه آلة جراحية من المنضدة التي بجوارها والتي كانت تحتوي على عدد كبير من الآلات الجراحية المختلفة.

وكمن تعرف طريقها تناولت أصابعه الآلة الجراحية بمهارة وتوجهت بها إلى الصدر المفتوح كدرفتي كتاب لمريض كان ممددً على منضدة العمليات، ويستر جسده بالكامل فرشٌ معقم، تعلقت الأنفاس وجمدت العيون داخل صدر المريض وتحركت أصابعه بمهارة تعمل على خياطة الشريان النازف بخيط طبي دقيق لا يُرى بوضوح إلا من خلال العدسة المكبرة الموجودة على ناظريه.

قطع صوت الصمت صوت طبيب التخدير من وراء الستارة الفاصلة بين الجراح المشهور وبين طاقم عمل التخدير وهو يقول: الضغط منخفض وضربات القلب تتباطأ.

لم يطرف له جفن ولم يجب فقد كان في أشد التركيز لوضع غرزة بالإبرة في جدار الشريان الذي لم يتجاوز قطره 1 مِم وكان مساعده أمامه متجمد المفاصل ليثبّت وضع الخيط الدقيق الذي يبلغ سمكه 0.07 مِم بعيدًا عن مجال حركة الإبرة الجراحية، كان يتساءل في نفسه: هل ستنجح هذه الغرزة الجراحية في إيقاف النزيف من الشريان التاجي؟ وماذا إذا فشلَت هذه المحاولة؟ فهذا الشريان أهم شريان لعضلة القلب.

وخصوصًا هذا القلب الذي جاء به صاحبه منذ ساعات قليلة ماضية وهو متوقف عن النبض عن طريق سيارة الإسعاف، و قد أُجريت له أثناء النقل إجراءات الأنعاش القلبي الرئوي وتلقّى عدة صدمات كهربائية ليعود إلى الانقباض على استحياء، ومن ثمَّ نُقل المريض إلى مركز العناية القلبية وتقرر إجراء قسطرة لفحص شرايين القلب حيث تبين أن المريض يعاني من تضيقات وانسدادات في شراينه التاجية ولم يستطع الطبيب الذي قام بعمل القسطرة أن يوسع أي منها أو يثبت أي دعامة.

ولأن عضلة القلب كانت ضعيفة تم تثبيت مضخة بلونية لدعم وظيفة عضلة القلب ولم يعد أمام المريض إلا الحل الجراحي وإن اشتمل على خطورة واضحة.

تحدث الجراح المشهور مع أبناء المريض اللذين كانوا منهارين تمامًا لخطورة وضع والدهم، فلم يكن الرجل كبيرًا بالسن، ولكنه كان مدخنًا شرهًا، وضّح الجراح أن الجراحة لازمة وإن اشتملت على خطورة عالية لوضع عضلة القلب، وافق الابن على الجراحة بعد أن شرح الموضوع لوالده الذي أذعن لرأي الجراح وأولاده.

بدأ تجهيز العمليات سريعًا وأثناء نقل المريض لغرفة العمليات والجراح يقف أمام غرفة العمليات فوجئ بيد صغيرة تنقر على ساقه من الخلف، فالتفت ونظر إلى الأسفل فوقعت عينيه على عيون تغطيها الدموع وتخفي احمرارًا عكّر صفو بياضها ووجه أرهقه البكاء لفتاة لم تتعد عشر سنوات، عرف من وقوف الابن الأكبر للمريض وراءها أنها ابنة صغرى له، قالت الفتاة وصوتها متهدج من البكاء: أرجوك يا دكتور انقذ أبي، أنا بحبه جدًا ومش عايزاه يموت.

انحني الجراح ليضع قبلة على جبينها وهو ممسك برأسها ثم قال لها: سأفعل ما في وسعي يا صغيرتي ولكن عايز منك حاجة واحدة.

ردت الفتاة وهي تمسح دموعها: ماذا تريد أي حاجة أنا أجيبها لك، المهم أبي يعود إليّ.

ربت على رأسها وقال: عايزك طول ما أنا باشتغل تدعي لنا أن ربنا يوفقنا.

قالت: أنا سأبقي هنا على هذا المقعد أقرأ القرآن وأدعي، المهم تخرج تقول لي أن أبي بخير.

قال وهو يدخل حجرة العمليات: إن شاء الله، إن شاء الله يا بنيتي..

كانت كلمات الفتاة الصغيرة تدوي في مسمعه بنبراتها المتوسلة كمقطع صوتي يتكرر من حين لآخر طوال فترة إجراءه للجراحة.

لم تكن جراحة بسيطة، فرغم أنه قد أجرى مئات من الجراحات الصعبة وأبدى من خلالهم مهارات جراحية جعلت اسمه يندرج من بين أسماء الجراحين المشهورين في هذا المجال، إلا أن هذه المرة كان الأمر مختلف، فكان توسل الابنة الصغيرة يشكل على نفسه ضغطًا خصوصًا عندما وجد أن شرايين المسكين في حالة سيئة جدًا، فقد كانت كلها ضيقة جدًا، مما جعل مهمة إنشاء توصيلات عليها باستخدام وريد الساق ليست بالمهمة السهلة، غير أن وضع عضلة

القلب كان مزريًا، وعلى الرغم من ذلك قام بعمل توصيلتان لاثنين من الشرايين الجانبية وبقى أهم شريان وهو الشريان الرئيسي لعمل عضلة القلب والذي كان أسوأهم.

استجمع تركيزه وقام بتوصيل الشريان الصدري لكي يقوم بضخ الدم داخل هذا الشريان، أخذ نفسًا عميقًا وبدأ يختبر ضخ القلب بعد إجراء هذه التوصيلات، وما أن بدأ القلب يصحو من جديد ويضخ الدم ويتم فصله من جهاز القلب الصناعي الذي يُعتمد عليه في ضخ الدم أثناء إجراء هذه الجراحة، إلا وفوجئ الجراح بنزيف شديد من توصيلة الشريان الرئيسي و بدأ الوضع يزداد حرجًا بشكل سريع فضغط الدم ينخفض والضربات تتباطأ، فجدار الشريان ضعيف وضغط الدم داخله أدى إلى حدوث تهتك في موضع التوصيلة الجراحية.

يجب عليه أن يوقف هذا النزف من هذا الشريان المهم أو أن يأمر بعودة عمل القلب الصناعي وفِي هذه الحالة ستقل فرصة هذا القلب على التعافي مرة أخرى.

إنها غرزة واحدة بهذه الإبرة الدقيقة وهذا الخيط الذي يكاد لا يُرى، يمكنها أن تثبت الوضع وتعطي فرصة لهذا القلب ولكن الشريان رفيع جدًا، إنه أقل من واحد مليمتر، ولكن هناك احتمال كبير أن تعمل

هذه الغرزة على غلق مسار الدم داخل الشريان الرئيسي ويفقد القلب دعمًا مهما لكي يتحسن وبذلك يعود الوضع إلى نقطة الصفر.

أمسكت يده بماسك الإبر الجراحية الدقيقة وأخذ نفسًا عميقًا وطاقم التخدير يراقب وضع الضغط الدموي وضربات القلب ويمدون الدورة الدموية بالعقاقير المنشطة، وبدأ طاقم القلب الصناعي يستعدون من جديد لتشغيل ماكينة القلب الصناعي، شعر في هذه اللحظة لأول مرة بتوتر ورعشة خفيفة في أنامله، ودوى مرة أخرى في مسمعه صوت الفتاة الرقيقة بحزنها ودموعها وتوسلاتها.

كان لا بد وأن يأخذ القرار، هل يأمر بتوقيف عضلة القلب مرة أخرى؟ هل يجازف ويأخذ هذه الغرزة لعل النزيف يقف؟

هل ستؤدي هذه الغرزة إلى وقف النزيف أم لا؟

وهل يمكن أن تكون سببا في أفساد التوصيلة بأكملها؟

لن تستحمل هذه العضلة كل هذا المجهود.

أخذ قراره و بدأ بوضع الأبرة في جدار الشريان الدقيق،

هل كان متأكدًا من أنه المكان الصحيح؟

شعر للحظة أن غرفة العمليات تدور به وضع الغرزة وأمسك بطرفي الخيط وبدأ يعقد الخيط على جدار الشريان، والكل ما زالت أنفسهم معلقة وأعينهم تتابع حركة أصابعه.

مضت أقل من دقيقة لكنها كانت كأنها ساعة كاملة، انتهى من الغرزة الجراحية وقص المساعد طرفي الخيط،

نظر المساعد إلى قلب المريض، لقد توقف النزيف، وبدأ القلب ينبض بانتظام من جديد واختفى صوت الإنذار وارتفع ضغط الدم من جديد، حمد الله قال له المساعد:

،""غرزة معلم

فتمتم الجراح بحمد الله

مر الوقت والقلب يتعافى شيئًا فشيئًا

وقبل أن ينهي الجراح عمله نظر إلي مساعده قائلًا:

أتدري هذه الغرزة الأخيرة لا يعود لي أي فضل فيها لا أعلم لماذا اخترت هذا المكان بالذات ولا أدري ما الذي دفعني لأن أفعلها في لحظة شعرت أنني لا أملك أعصابي وأتحكم فيها بإرادتي، ربما ظننت ساعتها أن أعيد القلب للتوقف ولكن شيئًا ما منعني لكي لا أفعل ذلك.

لم أرَ ساعتها ماذا فعلت، كل شيء كان يحدث بدون إرادة كاملة مني لمدة ثواني معدودة .

شعرت أن هناك من يوجه يدي ويمسك بأصابعي لم أكن أنا من فعلت، أنه دعاء الفتاة الصغيرة.

توفيق كامل من الله، لم تكن «غرزة معلم» كما قيل لي

وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى». «

تمت

المجذوب

كانت أصوات النهار تنبت بجوار أذنه أو تمرق إليه من بين الدرفتين الخشبيتين للنافذة الوحيدة في الغرفة، وقد انحنتا من العجز فلم تعدا تغلقان بإحكام، ومع أصوات الباعة الجائلين وصوت حركة الأقدام وأصوات العاملين في القهاوي المكدسة على طول الشارع وحول الميدان ، دخلت إلي غرفته ذراعًا طويلًا من أشعة الشمس وأمسكت بجفنيه ووكزت مقلتيه فخرج النوم من رأسه مرغمًا، تململ في فراشه ووضع كفه أمام عينه ليمنع ذراع الشمس المزعجة التي قضت مضجعه.

وفجأة اقتحم عليه صوت المؤذن من مسجد الحسين القريب من غرفته، إنه العصر.

لم ينم حتى قرب الفجر، تسكع على القهاوي وعانق دخان «الشيش» بنكهاتها المختلفة وسمع أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب من حناجر يخنقها السعال وعلى نغمات تخرج عرجاء من بين الأوتار تستجدي الجنيهات وتلتف حول الريالات ويسيل لعابها من أجل الدولارات، صعب أن ينام أحد في هذه المنطقة قبل الفجر، فالحياة

هنا مستيقظة لا تنام بألوانها وأشكلها وكذلك الناس تجدهم كلهم هنا باختلاف أشكالهم وألوانهم، أنه مكان تألف فيه بالغرباء كما تألف بساكنيه.

وهو طول النهار يتسكع في حواري الحسين ويدلف بصعوبة مزاحمًا أشعة الشمس لأزقتها الضيقة حاملا علي ظهره لوحه الخشبي والكتب مرصوصة عليه بعناية ومهارة من كبيرها إلى صغيرها بين مجلدات لأمهات الكتب إلى روايات الكُتاب الجدد، إنه مكتبة متنقلة يبيع الكتب ليستطيع أن يكمل حياته على قيد الحياة دون أن يموت جوعًا على ظهر الحياة.

تبدو له الطرقات والشوارع الضيقة في هذا الحي كأنها ممرات زمنية تأتي من زمن بعيد وتصل حياته الحاضرة بماضي مجهول.

والمارة في شوارع الحسين وحواريها يبدون له كأنهم خليط من المجاذيب، مجاذيب للدنيا ومجاذيب للفن ومجاذيب للقهاوي والدخان ومجاذيب للأكل ومجاذيب للحسين وضريحه.

ومجاذيب الحسين يرتمون على عتبته ويتمسحون بقضبان مدفنه النحاسية يزرفون عليها الدموع ويضيئون حولها الشموع رجاءً في كرامته وشفاعته كما يتصورون بعد أن ضاقت بهم الحياة وانقطعت بهم السبل، مجاذيب الحسين مجاذيب مجتمع يعيش

في كهوف مظلمة، مجتمع لا يجد ما يستر به عورته ومع ذلك يبني قصورًا وينام متخمًا.

كان يحمل كتبه يوميًا ويرتحل بها بين صفوف الكراسي على القهاوي ويحاول أن يبيعها كما تبيع تلك الأخيرة الدخان والسحلب والشاي والقهوة، لم يستطع أن يجيد فن «رص» «حجر» الدخان في «الفيشاوي» ولا حشو الحمام في «فرحات»، ولم تطيعه نفسه أن يقف بشبابه وقوته على باب الحسين يستجدي الإحسان ولا أن يحمل مثل أم فردوس المناديل الورقية لتعرضها من أجل الفلوس دون أن تبيعها

ولم يكن له حظوة عند الحج عطوة لكي ينعم عليه بمكان في حارة يُركن فيها سيارات المريدين، ولا يعرف هز الأوتار ولا يحفظ أغاني أم كلثوم وسيد درويش ولم يستطع أن يحلم بقصر ولم يستطع أن يرحل عن مصر.

وعندما تفيض ساحة المسجد بالمصلين كان يقف بينهم يرى الأحلام يستجديها أصحابها أمام المقام أكثر من الذين يلهجون بدعواتهم وراء الإمام، ويرى مَن ينزع حذائه ويرتدي جلباب الورع والتقوى، حتى إذا قضيت الصلاة يجمع سبحته ويطوي سجادة خشوعه بين ضلوعه ويخرج يخالط الدنيا ويرتكب الذنوب بعد ما

سمع ما يكفي عن الحرام والحلال حتى استأنستها الآذان وألفتها القلوب ولم تعد تزكم رائحة المعاصي الأنوف.

إن للأماكن أقدار كأقدار البشر وقدر حي الحسين أن يدفن فيه رأس الحسين!!

سأل ذات يوم لماذا دفن رأس الحسين في هذا الحي بالذات؟! هل لكي يسترزق من ورائه كل هؤلاء البشر؟!!

وضحك أحد مثقفين القهاوي من سؤاله قائلًا ومن قال لك أن رأس الحسين مدفونة هنا ففرغ فاه مستعجبًا مما زاد من ضحك هذا المثقف وقال له: أتعرف أن هناك ٦ مساجد في مختلف بلاد العالم يُزعم أهل كل واحد منهم أن بها رأس الحسين، واحد في تركمانستان واثنان بسوريا بحلب ودمشق، وواحد في العراق بكربلاء حيث يُدفن جسده وواحد في فلسطين، وهذا الذي أمامك وكلٌ يؤكد أن رأس الحسين الطائرة دُفنت في مسجده، وكلٌ يقيم له الشعائر ويروّجون له الكرامات، وفي كل بلد تجد مجاذيب وراء هذه الشائعات ولا أحد يعرف الحقيقة.

صدمته هذه المعلومة، تري كل هؤلاء مخدوعون مضحوك عليهم يعيشون وهمًا ويتقربون إلى لا شيء تنفق الأموال في سبيل خواء، مقام فارغ.

مَن إذًا مدفون هناك؟!

قال له ذات مرة صديقٌ له أن هؤلاء مخابيل وأن الصلاة في مسجد به مقام بدعة وأنه لا يجوز أن نتقرب إلا لله ولا نرجو شيئًا إلا منه وتذكر أن أيام دراسته كان البعض يتهم هؤلاء بالشرك والكفر، لم يكن هو آنذاك يشغل باله كثيرًا بمثل هذه المناقشات فقد كان شظف العيش وضيق الرزق أهم عنده من أن يبحث وراء هذه الأمور كان يحلم أن تتحسن حالته بعد إنهاء دراسته وأن يترك حي الحسين إلى مكان أرقى.

لقد نشأ وترعرع في حي الحسين وكانت كل هذه المشاهد يراها شيئًا عاديًا، لم يكن يستغرب على أي من هؤلاء المجاذيب حالته ولا تصرفاته، وكان يصلي الجمعة مع والده ويحضر معه حلقات الذكر في المسجد أحيانًا وأحيان أخرى في بيت الهواري الأثري، ولكن لم يزرع هذا في نفسه وضميره ميلًا أو حبًا لهذا النوع من التديُّن ولما بدأ يكبر كان يرى كل هذا على سبيل أنه تراث وعادات شعبية وليس دين وتدين.

أنهى دراسته بصعوبة وعناء ولم يترك له والده إلا هذه الغرفة القريبة من المسجد ولم يساعده إلا في الحصول على شهادة لا تسمن ولا تغني من جوع.

وها هو ككل يوم يرتمي في حجرته بعد الفجر وتوقظه شمس الظهيرة قبل الآذان لا يشاركه في الحجرة إلا صفوف الكتب التي لم يقرأ منها إلا العناوين وأسماء كتّابها ويجمعها من فضلات المكتبات ودور النشر بأسعار زهيدة لكي يتقوّت ببيعها على أرصفة حي الحسين وبين رواد مقاهيها، فقد كان من بينهم مثقفين كما كان منهم الحشاشين.

لم يكن راضيًا عن حاله ووضعه ولكنه أيضًا لم يكن متبرمًا، فهذه هي حال معظم الشباب وخريجي الجامعات وفرص العمل تكاد تكون معدومة لا منفذًا للقمة العيش ولا حيلة إلا في مثل هذا التحايل علي العيش.

حتى مرت في حياته نسمة كالنسمة فنزعت منه قلبه وسلبته عقله فلم يعد يطيق اللف والدوران دون أن يمر عليها وهي تفحص الجدران الأثرية مع باقي فريق العمل الذين هبطوا علي المنطقة من أجل ترميم ما أفسده الزمن في هذا الحي العريق الأثري، ومنذ أن وقفت تبادله أطراف الحديث وهي تشتري منه كتابًا عن آثار مصر القديمة برقتها وبساطتها وجمالها الذي رآه كمن يرى فتاة لأول مرة في حياته، هل هي إنسانة حقيقية أم ملاك هبط من السماء في هذه البقعة، هل ملاطفتها الرقيقة المهذبة له وثناؤها على كفاحه من أجل الحياة أوقع حبها في قلبه فأصبح يحلم بها و يشتاق رؤيتها اشتياق ظمآن لشربة ماء في قيظ الصحراء!

لأول مرة شعر أنه يحتاج إلى أن يدخل إلى المسجد ويقف في صفوف المتمسحين بقبر الحسين علّه ينال كرامة منه ويحظى بها.

ولأول مرة شعر أنه بلا عمل و بلا مأوى وبلا حقوق وبلا مستقبل.

لم تصده نسمة مرة واحدة عندما كان يتحجج ويدور هنا وهناك حول فريق كلية الآثار وهم ينفذون مشروعهم، وكان يلمحها من بعيد فإذا التقت أعينهم تبتسم له فتبتسم نفسه ويحلِّق في أنحاء الحي العتيق، لأول مرة كان يشعر أن حي الحسين حي جميل، عاش في خياله معها و دار بها بين المقاهي وحلم أن تكون له، ولكن كيف وهو لا يملك من مقومات الحياة إلا غرفة بجوار الحسين وكتبًا تكاد تدر عليه ثمن غذاءه اليومي.

إنه في حاجة إلى معجزة ، في حاجة إلى كرامة، لكي يتحقق حلمه الذي ظهر فجأة في حياته فقلبها رأسًا على عقب.

الكل يأتي الى هنا من أجل معجزة وهو هنا منذ وِلِد وتربى وترعرع بجوار الحسين، والجار أولى بالشفاعة فليكن.

دخل إلى ضريحه وأمسك بالقضبان الحديدية وأقسم عليه أن يحقق له حلمه.

هل كان يُؤْمِن ساعتها أن للمقام كرامة كما يُؤْمِن هؤلاء المجاذيب، هل نسي ساعتها حوار الشرك وكلام هذا المثقف أنه قد يكون هذا المقام فارغًا من صاحبه الذي يظنون!!

هل تعمّد أن يسأل تحقيق حلمه أمام ضريح المسجد ولا يقف يرجو تحقيق حلمه أمام قبلة المسجد.

لا يدري هو ولم يفكر ساعتها فقد كان يفكر في نسمة ولم يقف مرة واحدة يصلي بخشوع وراء الإمام، لقد فعل كما يفعل الآخرون وهم كثر، ولكنه كان في كل مرة يقف أمام الضريح يشعر وكأن هناك هاجسًا يوعده بأن حلمه سيتحقق، سوف تحصل المعجزة وتتغير ظروف حياته،

كيف سيحصل هذا له.. إنه لا يدري.

ولكن الهاجس كان يطمئنه ويذهب معه إلى غرفته وينسج له أثناء نومه الأحلام ويستيقظ يبحث عنها ويدور حولها ويخطف منها الكلام والحوار.

وكما ظهرت نسمة اختفت نسمة واختفي فريق العمل كله

وبقي هو بين شوارع وأزقة الحي كالضائع يشعر أنه قد خُدع وأن نسمة قد خانته مع أنها لم تعده مرة واحدة بشيء،

لم يستسغ بعدها طعامًا ولم يشعر بألفة مع الناس والشوارع،

هل كان غريبًا منه أن يشعر أن نسمة خدعته!!

فكر في حالته بعدها كثيرًا

لماذا يعيش هو هكذا؟!

لماذا لم يستطع أن يحقق حلمه الوحيد الذي حلم به؟!

هل خدعته نسمة؟!

هل خدع هو نفسه وعاش وهمًا في خياله؟!

وانتهى به الأمر إلى أنه صار مقتنعًا أن من خدعه هو كرامة الضريح.

إن هذا الضريح ليس له كرامةأ هؤلاء المجاذيب مخدوعون

هذا الذي قال له ان هذا الضريح ربما يكون فارغًا كان على حق.

إن هؤلاء المريدين يتمسحون في لا شيء، إنهم يخدعون أنفسهم أو هُم أنفسهم مخدوعون.

أيقظته ذراع الشمس التي تدخل من بين درفتي نافذته فقام من على سريره وقد عزم في هذا اليوم أن يكشف هذا الخداع.. أن يوقفه

لقد نبتت في رأسه فكرة مجنونة قرر أن ينفذها هذه الليلة

خرج من غرفته دون كتبه، لف ودار ينظر إلى الناس هنا وهناك ثم دخل المسجد، ولأول مرة يجلس منتبها إلى المصلين بهذا الشكل ويراقب هؤلاء الذين يقفون بين يدي الله يدعونه، ثم هؤلاء الذين يتوسلون بالمقام النحاسي.

اقترب من الإمام وسأله:

هل دعيت الله يومًا ولم يستجب دعائك يا شيخ

نظر إليه الشيخ متفحصًا ثم أجابه:

الدعاء عبادة يا بني إن لم يستجب لها الله فهي تقربك إليه وان لم يستجب الله لها في الدنيا يعود عليك نفعها في الآخرة، وقد يرجئ بها الله عنك مكروه لا تدري به، نحن ندعو الله ولا ندري ما فيه الخير لنا ولكنه سبحانه يدري.

فنظر إلى الواقفين بباب الضريح وسأله:

وما بال هؤلاء

نظر إليه الشيخ وقال:

مساكين يا بني، ثم التفت عنه وانصرف.

وقف ينظر إليهم وقد زاد عزمه، اقتربت صلاة الفجر، صلى ثم انزوى في ركن بعيد تعمّد أن لا يره أحد.

قُضيت الصلاة وبدأ المصلين يخرجون وبدأ المسجد يخلو وهو كان بعيدًا عن الأنظار مختبئًا صامتًا لا يتحرك حتى لا يشعر به أحد.

مضى الوقت وبقى هو وحيدًا داخل المسجد، وقف متجهًا إلى ركن خفي في نهاية المسجد قد أخفى فيه عتلة وشاكوشًا في كيس

بلاستيكي واقترب من الضريح، لقد قررأن ينبشه ليثبت أن هذا الضريح خالي وأن الناس يخدعون أنفسهم أو أن هناك من يخدعهم.

إنه يعلم أن الأرض لا تأكل أجساد الشهداء فَلَو كان رأس الحسين هنا سيجده، إما إن كان فارغًا سيكشف أكبر خدعة انخدع بها الناس على مر سنوات طويلة.

اقترب ويداه ترتعشان لكن عقله قد سيطرت عليه الفكرة وأصبح يتحرك باللا وعي داخله.

أقترب أكثر من بال الغرفة وأدخل العتلة بين شقي الباب وبعد قليل من العناء دلف إلى داخل المقام وهو مأخوذ لم يعد يدري ما يفعل ولم يعد يسيطر على نفسه.

لقد وجد نفسه مدفوعًا إلى تحطيم مدخل الضريح، لم يكن الأمر سهلًا وصدرت أصوات الطرق على النحاس مجلجلة في أنحاء المكان، لم يدرِ كيف في وقت قصير وجد رجال الشرطة وأهالي الحي حوله داخل المسجد وهو منفعلًا بالطرق بشدة على الضريح بالشاكوش الذي يحمله.

أدخلت الشمس هذا اليوم ذراعها إلى غرفته لكنه لم يكن هناك.

اختفى وانتشر الخبر أنه ينتمي إلى جماعة من الجماعات المتطرفة التي تهدف لهدم المساجد ذوات الأضرحة،

ولا يدري أحد مدى الألم الذي تعرّض له لكي يعترف على أفراد الجماعة.

واعترف أخيرًا بعد أن كاد يلفظ أنفاسه ولكنهم بعد أن اعترف اكتشفوا كذب اعترافه وأصبح عندهم يقينًا أنه مخبول.

غاب عدة سنوات لا يدري عنه أحد، لكنه ظهر أخيرًا بذقن طويلة وثياب رثة وسِبح متعددة تتدلى من رقبته يلزم باب الحسين ليصبح واحدًا من مجاذيبه.

ملتت

العلوكية

بعد رحلة طويلة من السير البهلواني وقدرة فائقة من السائق «دقدق» الذي لم يتجاوز العشر سنوات في الحفاظ على توازن السيارة ذات الثلاث عجلات فوق الأرض الطينية والمرور من خلال الممرات الضيقة الغير مستوية بين الترعة من جهة وحقول البرسيم من جهة أخرى، وصل «التكتوك» إلى الوحدة الصحية ونزل حامد أولًا ثم مد زراعه إلى داخل التكتوك ليساعد والده الشيخ عطية على النزول ومن داخل التكتوك كانت فاطمة ابنته الصغرى تسنده حتى يستطيع الوقوف، كان عطية يدفع أيديهم رافضًا أن يساعده أحد، فهو يرفض أن يشعر أنه في حاجة إلى المساعدة حتى لو كانت من أبنائه

«سيب يا ولد أنا لسه بصحتي»

ولكن كانت عضلات ساقيه لها رأى آخر فهي في حاجة للمساعدة، وبعد عناء وعناد استطاع عطية من أن يصلب طوله بجوار التكتوك وتعمد أن ينفخ صدره ويقيم رأسه إلى أعلى ليراه الجميع واقفًا كالوتد، ولكن كانت تلك الوقفة مستندة كلية على عصب حامد الذي ثبت يديه في ظهر أبيه ليبدو للجميع أنه ما زال واقفًا على

قدميه، كما كان يريد أن يظهر دائمًا وخرجت فاطمة بسرعة من الناحية الأخرى لتشق الجموع المحتشدة أمام عيادة الوحدة الصحية، الكل ينتظر أن يدخل ليجري الطبيب الكشف عليه واستطاعت فاطمة أن تقطع تذكرة كشف وقام أحد الفلاحين من على مقعده ليجلس عطية مكانه، قال حامد لدقدق سائق التكتوك «انتظرنا يا دقدق»

رد دقدق وهو يتنحى بتكتكة جانبًا في مهارة

«عيوني للشيخ عطية»

جلس الشيخ عطية وسط المنتظرين وهو يخفي تألمه الشديد ويرتكز بكلتا ذراعيه على المقعد ووقف حامد وفاطمة أمامه يستعجلون بأعينهم الناس والطبيب رفقًا بوالديهما، فقد تطور مرض الشيخ عطية سريعًا، فمنذ عدة أسابيع كان يزرع الحقول ويطوف القرية ذهابًا وأيابًا حتى أصابه ما أصابه من آلام شديدة ظهرت فجأة في ساقه لا يستطيع الحركة معها خطوة واحدة، قالوا له إنه إرهاق ويجب أن يستريح والبركة في حامد فكان رده: وماذا يفعل حامد وحده وسط جشع السوق و صعوبة الحياة فالأسمدة طالها جنون الأسعار والغش، والمحصول يقل عامًا بعد عام، لم تعد هناك بركة وأصبحنا كأهل المدن نعاني مِن الخبز المسخوط وغلاء السلع، حتى الثمار لم تعد لها طعم زمان والكل يعلق المشاكل على ارتفاع

سعر الدولار وزيادة سعر البنزين، كنّا زمان عايشين على الحطب والسماد الطبيعي.

الله يكون في عون الأجيال الجديدة، أرتاح ازاي بس يا ناس والمسؤوليات كتير، الولد حامد مش قدها لوحده.

وكان الحج عبد الحفيظ صديقه ينصحه أن لا يعطي الأمور أكثر مما تستحق

«طول عمرك كده يا شيخ عطية «

فكان يرد عليه:

«بس الدنيا لم تكن طول عمرها كده يا عبد الحفيظ ، الدنيا أصبحت معركة واحنا ضحايا مطحونين لا أحد يساعدنا والحكومة فضت يداها منا»

يرد عبد الحفيظ:

«حتعمل أيه الحكومة بس يا عطية!، الناس هي السبب لم يعد هناك ذمة ولا ضمير، احنا السبب يا عطية وبعدين ما احنا طول عمرنا في هذا الكد والتعب، هو احنا شوفنا يوم راحة، ولا حتعمل زي اللي بيترحموا على أيام الملوكية ده كان حالنا لا يسُر عدو ولا حبيب»

ينظر له عطية بطرف عينه قائلًا: انت بتقول زي الناس أصحاب البدل اللي واجعين دماغنا في التلفزيون والراديو.

هو يعني مكتوب علينا وعلى عيالنا التعب والشقاء، وبعدين أنت نسيت ولا إيه يا عبد الحفيظ هو كان حالنا كده ده الخير لم يكن ينقطع يومًا من ديارنا لم يكن هناك لا موبايل ولا تليفزيون ولا ثلاجة، لكن كل شيء كان متوفر أكل وخبز وطيور وماشية وغيره وغيره.

وبعدين كنا ننام من غير هموم، دلوقتي ينام الواحد منا أمام التلفزيون ولا يصلي الفجر، ده كله لماذا؟ لكي ينسى الواحد منا همومه أمام هذا المخروب لكن تلاقينا لا نشاهد فيه إلا ما يزيد همومنا وكل واحد يطل علينا منه يقولك استحمل شوية، احنا نستحمل أكتر من كده إيه بس»

ثم ينظر الشيخ عطية إلى حامد وأخواته البنات التي تكبرهم فاطمة قائلًا:

«والله ما أنا عارف مين السبب في اللي احنا فيه ده؟!

انا عارف حاجة واحدة إني لن أستطيع أن أستريح بالوضع اللي احنا فيه ده»

وعاند الجميع وتحامل على نفسه واجتر ألمه واستمر يعمل ليل نهار حتى أصبح لا يستطيع الحركة، واشتد به الألم وأصبحت قدميه في لون الحبر الأزرق وفي برودة الثلج رغم حرارة الجو.

كان لا بد أن يذهب إلى طبيب الوحدة، مر الوقت بطيئًا وعطية في جلسته يتألم في داخله، ولكن ملامحه لا يظهر عليها أي تغير، فبدا وكأن وجهه من صخر، ملامح ثابتة لا تتغير اللهم إلا من بعض قطرات العرق التي تجمعت على جبينه لتشعرك أنه وجه إنسان وليس وجه تمثال، وحامد وفاطمة من حين لآخر يذهبا إلى «التمرجي» الجالس على باب العيادة يستعجلوا الدخول، فيخبرهم أن ما زال أمامهم فوق العشرة من المرضى قد حضروا قبلهم.

لم يمر وقت طويل، فقد كان أقصي وقت استغرقه مريض في العيادة لم يتعدَ خمس دقائق، فالطبيب بالداخل حريص على أن ينهي مناظرة كل هؤلاء المرضي قبل الثانية ظهرًا حتي يستطيع أن يذهب إلى عيادته الخاصة التي يبدأ العمل فيها من بعد الثالثة مساءً، وغالبًا معظم هؤلاء يذهبوا له أيضًا هناك في مركز المدينة التابع له القرية كدأبه يوميًا.

وتبقى الوحدة الصحية وسيلة لصرف العلاج لهؤلاء المرضى أو سبيلًا وحيدًا أمام من لا يقدر على مبلغ الكشف في عيادة الدكتور بالمركز، دخل عطية يسنده حامد وفاطمة إلى داخل العيادة، وقام الطبيب بفحصه وهو يسمع من حامد تفاصيل المشكلة ثم سأل عطية أسئلة روتينية عن سنه وإن كان يدخن سجائر أو شيشة، وهل يتناول أي أدوية لمرض مزمن أم لا، وكان عطية مدخنا للسجائر وقد

زاد معدل تدخينه في آخر أربع سنين ليصل إلى تدخين علبتين من السجائر المحلية يوميًا، لم يستمر الطبيب كثير في فحصه فبمجرد أن كشف الجلباب عن ساقيه ووضع يده يتحسسها ثم مرر أصابعه على ظهر قدمه متلمسًا النبض ثم انتقل سريعًا إلى ركبتيه باحثًا عن النبض هناك، ثم نظر في وجهه وعاد إلى مكتبه وأمسك بدفتر الوصفات الطبية وهو يوجه حديثه إلى حامد:

يجب أن تذهب بأبيك حالًا إلى المستشفى المركزي، إنه في حاجة إلى عمل بعض الإشاعات والفحوصات السريعة، وربما يكون في حاجة إلى جراحة عاجلة.

نظر حامد في زعر إلي الطبيب متسائلًا:

«هو فيه إيه يا دكتور؟»

رد الطبيب: الشيخ عطية يعاني من جلطه بشرايين الساق وفِي حاجة إلى مركز متخصص للتشخيص والعلاج، مبدئيًا لازم تذهبوا إلى المستشفى المركزي بهذا التحويل الآن.

رد الشيخ عطية: يعني يا دكتور لا ينفع أن تعطيني دواء واتعالج في البيت.

نظر إليه الطبيب قائلًا في حزم: لا يا شيخ عطية، الأمر جد خطير، أنت لو اتأخر ت عن كده ممكن تفقد ساقيك تمامًا.

وقع كلام الطبيب على عطيه كالصاعقة بينما وضعت فاطمة يدها على فمها والدموع تترقرق في عينيها وأصيب حامد بالذهول

كان حامد قد أنهى فترة خدمته العسكرية توًا ولم يعرف حتى لحظته هذه كيف يمكنه أن يعارك الحياة!، كل ما اكتسبه من مدرسته في القرية ومدرسينه أنه تعلّم كره الكتاب أكثر من ما تعلمه من داخل الكتاب.

ثم التحق بالمعهد التجاري وخرج ليجلس على القهاوي قبل أن يلتحق بالخدمة العسكرية، وفِي الخدمة العسكرية قضى ثلاث سنوات ثم عاد ليعتمد اعتمادًا كليًا على أبيه.

حاول الشيخ عطية أن يشد اهتمامه للأرض، إلا انه لم يكن يهوي الفلاحة ولم يكن يدري ما يمكن أن يجيده في حياته، فقد تخرج دون أن يكتشف في نفسه شيئًا، ووجهه الشيخ عطية للتجارة وعهد إليه بيع المحاصيل، كان يريد أن يصنع منه رجلًا يعتمد عليه، فقد كان ينظر إلى هذا الجيل أنه جيل فاقد الهوية ومشتت، وهذا بالفعل ما شعر به حامد، شعر أنه فاقد الهوية ومشتت الفكر بعد ما سمع هذا الكلام من الطبيب، لم يجد إلا الحاج عبد الحفيظ يلجأ إليه يطلب المشورة والسند.

ومرت الأيام التالية عليهم بصعوبة داخل المستشفى المركزي الذي حولهم بدوره إلى المستشفى الجامعي، لعدم توافر الإمكانات اللازمة لمثل هذا المرض وأُجريت عدة أشعات وتحاليل وكان

القرار النهائي هو أنه في حاجة إلى جراحة عاجلة لإزالة الجلطة من شريان الساق وهي جراحة دقيقة وخطيرة قد تنتهي بعملية بتر لساقه، كانت الإجراءات تسير برتابة لم تكن متوقعة في مثل هذه الحالات مما زاد من قلق حامد وعندما سأل الممرضين حوله، أسروا إليه أن هناك أدوات غير متوفرة بالمستشفي مما سيؤجل إجراء الجراحة.

انزعج حامد ولكن الحالة حرجة فتلقى النصح من أحدهم أن يتوجه إلى أحد المستشفيات الخاصة إن كان يريد أن يعجّل لأبيه هذه الجراحة الخطيرة لكي ينقذ ساقيه ويظل واقفًا وسط القرية كالوتد كما كان دائمًا يدعو «يارب ما أموت إلا وأنا واقف على رجِلي»

لكن يجب أن يكون جاهزًا بمبلغ ضخم

لم يفكر حامد كثيرًا، أخذ رأي أخته فاطمة وقرر بيع عدة قراريط من أرضهم لتوفير المال الكافي لإجراء الجراحة بمستشفى خاص.

عارض عطية الأمر في بادئ الأمر، ولكن وضعه وحالته لم تجعله يصمد كثيرًا.

وتم الأمر وخرج عطية من المستشفى الجامعي بالاتفاق مع أحد الأطباء الجراحين إلى مستشفى خاص، وتحددت الجراحة في اليوم التالي.

وقف حامد وفاطمة وعدد من أهل القرية يتوسطهم عبد الحفيظ يقتلهم القلق والتوتر، منتظرين خارج حجرة العمليات أن يخرج إليهم الطبيب يطمئنهم، مرت الدقائق ثقيلة بطيئة وكأنها قد أصيبت بشلل، لقد كان أول امتحان لحامد وأخته في هذا الدنيا، امتحانًا صعبًا

وأخيرًا خرج الطبيب ونظر إليهم اتجهوا إليه متلهفين:

«بشرنا يا دكتور كيف حال الشيخ عطية؟»

نظر الطبيب وفاجأهم بسؤال غريب وبأسلوب فيه جدية وحِدة مع نبرة تقريظ:

ماذا أكّلتم المريض بالأمس؟!

نظروا بعضهم لبعض ولم يفهموا مغزى السؤال.

فأعاد الطبيب سؤاله بمزيدٍ من الحِدة والجدية:

ماذا أكل المريض بالأمس؟!

فردت فاطمة في وجل: «ملوخية ورز يا دكتور»

انزعج الطبيب وصاح في غضب: «ملوخية .... ملوخية !!

أجننتم كيف تُأكلون مثل هذا المريض ملوخية؟!

لقد تسببتم في وفاته، لقد مات بسبب الملوخية»

نظر الكل في ذهول، وردت فاطمة: والله ما كنت أقصد لقد اشتهاها فطبختها له»

قال حامد: هل الملوخية خطيرة جدًا يا دكتور؟

رد في حزم: طبعًا في مثل حالته، ألا تعلم أن اسمها ملوكية أي إنها أكل الملوك أصحاب الصحة أما المرضى فلا، لقد مات بسبب الملوخية بعد جراحة عظيمة وخطيرة ضيعتم مجهودنا... لم يستحمل قلبه ومات... ضاع مجهودي

انهارت فاطمة وهي تلطم وجهها ووقف حامد لا يدري ماذا يفعل.

ولكنه أخذ يردد:

والله لم نكن نعرف يا دكتور.. والله لم نكن نعرف.. ليه كده بس يا فاطمة.. ليه كده بس.. لم يخبرنا أحد يا دكتور.. لم ينبهنا أحد!!

وانسحب الدكتور وهو يخبط كف على كف خارجًا مبتعدًا عن المستشفى.

واستبد بعبد الحفيظ التفكير.. معقول تكون الملوكية هي السبب!!

تمت

فاوست

وقف وسط البهو حائرًا فقد قضى طول الليل يصارع الهواجس والمخاوف لم يقترب من سريره لحظة واحدة،

كان السكون قد استولى على القصر بأكمله في هذه الساعة من الليل، ما هي إلا بضع ساعات ويشق الفجر ستائر الليل السوداء، ويستطلع الدنيا ضوء خافت، ثم تأتي جيوش الشمس الساطعة لتحتل المدينة.

نظر إلى كرسيه في صدارة البهو وهو شامخ وحوله تراصت مقاعد الكهنة الصغار من مساعديه ونوابه،

التفت عنه وهو يشعر بالاختناق واتجه إلى الشرفة التي تطل على حقول البلدة الممتدة إلى البحر والنهر يمر متعرجًا بينها والأشجار ترقبه كأنها وحوش خرافية رابضة على أطرافه في الظلام فاستولى عليه خوف ورهبة.

ساعات وتمتلىء الساحة تحت الشرفة بجموع الشعب، سوف يستدعيه الملك لا محالة.

لم يكن يتصور أن العقد الذي أبرمه آنذاك سيكون له مثل هذا الثمن الباهظ، كم مر من الزمن علي هذا اللقاء، لم يعد يتذكر كان ما زال كاهنًا صغيرًا يقضي طول وقته في مراقبة السماء ومطالعة الكتب المقدسة. يبحث عن الحقيقة ولا يشغله عنها إلا طيف هيلانة عندما تمر بخاطره تأخذ بلباب فكره وتخرجه من أجواء العلم والكتب والفلك والدين إلى حيث الجنة وإلى حيث قمة الجمال وقمة الصفاء..

آه يا هيلانة.. كم أحبك!

كانت كثمرة تشتهيها نفسه وتتوق نحوها كل العيون ولا يستطيع أن يحظى بها أحد، ثمرة ناضجة على عودها أزاغت الأبصار وتلوعت لها القلوب وأكثرها قلبه.

لقد كانت ليلة طويلة كهذه، أخذه خياله فيها إلى أبعد الأماني، أخذه حلمه بالحقيقة وحلمه بالدنيا وحلمه بهيلانة حتى جاءه ميفستوفوليس، لم أدرِ كيف استطاع وقتها أن يقتحم عليّ صومعتي، وجِلتُ منه وهابني منظره، ولكنه اقترب مني وربط على كتفي وهدأ من روعي، قال لي أنه اختاره من بين كل رعية الملك... لكي يقدم لي حلمي على طبق من ذهب.

قال لي: «ماذا لو أعطيتك كل شيء، أعطيتك الطريق إلى الحقيقة، وأعطيتك متاع الدنيا، وأعطيتك هيلانة!»

فسألته:

- لكن هل يمكنك أن تدلني على الحقيقة كاملة؟!

فملأ الأجواء بضحكة مدوية وقال:

- الحقيقة هي الدنيا وأنا بيدي الدنيا، سأدلك عليها،

استغربت ساعتها قوله وقلت:

- أنا أعيش الدنيا، ولكني لا أدرك الحقيقة، فما هي الدنيا التي تقصد؟!

وضع يده وكأن بها سحر على صدري وقال:

- أنت لا تعيش الدنيا، أنت تدفن نفسك داخل صومعتك وتحلم بالدنيا، فكيف لك أن تعرف حقيقتها!!

استعجبت مرة أخرى على كلامه وقلت له:

- أربعون عامًا في الحياة وتدّعي أني لم أعش الدنيا!!

التف عني ونظر إليّ بطرف عينيه الحادتين وقال في خبث:

- ألم تحلم بهيلانة؟!

- هيلانة.. كيف تعرف بأمرها!!

- أنك تحلم بها وتتطلع إليها ولكنها بالنسبة لك إلى هذه اللحظة مجرد حلم لم يتحقق فكيف تدّعي أنك تعيش الدنيا؟!

فسألتُه وهيلانة تلوح أمام مخيلتي:

- وهل يمكنني أن أحصل على هيلانة؟

- يمكنك بالطبع

- كيف؟

- يجب أن توافقني

- أوافقك على ماذا؟!

- توافقني أن تكون رجلي

- كيف؟

- أعطيك الحقيقة، أعطيك هيلانة.. أعطيك الدنيا، سلطة ومال ومتاع على أن تكون رجلي تنفذ ما آمرك به، وتفعل ما أريده منك أن تفعله دون نقاش ولا مجادلة، آمر فتطيعني.

- ومن تكون أنت؟!

- أنا أكبر قوة في هذا المكان، أنا الذي يحكم

- والملك!

- الملك صورة، يفعل أيضًا ما أريده منه، أنا الحاكم الفعلي

- لكني لا أراك بالبلاط الملكي

- عندما تكون رجلي سوف تراني وتعرف قدراتي

- ولماذا أنا؟!

- لأني أريدك انت

- لماذا؟!

- سوف أجعلك كبير الكهنة، فالملك ينقصه كاهن عظيم ذو علم مثلك حتى يوجهه ويوجه الشعب بعلمه

- وهل اختارني الملك؟

- بل رشحتك له بشرط أن تقبل عرضي

- إذا كنت اخترتني لعلمي فلماذا أقبل عرضك؟!

- إن علمك بدون الحياة لا يساوي شيء، بدون الحقيقة لا يمكنك أن تدل أحد، بدون هيلانة سيكون فكرك دائمًا مشتتًا وأنا أملك الحقيقة والدنيا، فلا بد من أن تدين لي بالولاء

- وهيلانة؟!

- الدنيا هي مفتاح قلب هيلانة

- إذًا أوافق

- توقّع على عقد يوثّق الاتفاق

- أوقّع

ووقعت الاتفاق...

رأيت كل الدنيا تحت قدمي رأيت جمالًا لم أكن أدركه من قبل.

هل هناك أجمل من هذه الدنيا؟! هل الجنة إلا ما أعيشه الآن، هذه هي الحقيقة، أعطاني اللذه والمال والسلطة.

كلامي عند الملك مسموع وعلى رقاب الرعية سيف مسلّط

أصبحت أنا القانون والقاضي، وفي خِضم هذه المتع نسيت هيلانة، ونسيت الصالح يوستوس أعز أصدقائي.

لم يزل كما هو يعلّم أطفال البلدة الحق والخير والجمال،

ولم يزل كما هو ذلك الفقير الذي يرضيه الخبز والملح ويزعجه الظلم والزيف.

لم أهتم بكم النفوس التي أذهقتها بسبب فتاواي، لم أكن أنا الذي يفتي، لم يكن علمي وراء آرائي، إنه كان مفيستو فوليس، كان يعرض علي أمر هؤلاء الزناديق الذين يريدون خراب البلاد وأنا هائم في أحضان الحسناوات،

ويوعز إليّ أن هؤلاء الزناديق يثيرون القلاقل لكي تزول هذه النعم من بين أيدينا، إنه الحقد الذي يملأ صدورهم و يطمس على قلوبهم، يجب أن نطيح برؤوسهم مجرد أن أخرج على الشعب وأعلن أن هؤلاء المرتزقة زناديق، يطيح سيف الملك برؤوسهم فأبارك الملك وأبارك السيف الذي يطيح بالرؤوس ويهتف الشعب يحيا الملك.

ثلاثون عامًا مضت على تلك الليلة التي نسيت بعدها ما كانت عليه حياتي من قبل، ونسيت بعدها ماضي وحلمي،

لم تعد تشغلني الحقيقة كما كانت منذ عرفت الدنيا، ولكني ما زلت أحب هيلانة ولكنها لم تزل بعيدة عن يداي.

لم يوفِ بعد مفيستو فوليس بهذا الجزء من العقد وأخذتني الدنيا بما فيها من مُتع عن هيلانة كان دائمًا يسوِّف طلبي لها ويصبّرني بما يفوقها جمالًا، لكن لم تُنسني أي جميلة الثمرة الناضجة هيلانة.

لكن اليوم بل الليلة وعدني أن أظفر بهيلانة بين ذراعي وأملأ من عطرها صدري، وأسبح في بحر عينيها بنظري

لكن..

عليّ أولًا أن أعلن على الملأ أن صديقي يوستس هو الزنديق الأكبر، إنه هو الذي يعلّم الزناديق ويدفعهم للخروج على الملك، هو من يسعى في البلاد فسادًا.

لكنه الصالح يوستس تربيت معه، بل أنا من علَّمه الحكمة والخير والجمال، ولو لم يكن فلّاحًا لكان كاهنًا، أنا أعرفه جيدًا، إنه يكره الظلم ويسعى للحق، إنه الخير يسير على الأرض، فكيف يمكنني أن أتهمه بالزندقة، أنا أعرف الناس به كيف يمكن أن أكون سببًا ليطيح سيف الملك برأسه.

منذ ثلاثون عامًا لم يخطر ببالي أن يكون يوستس ثمنًا لهذا العقد، لا لن..

لكني الآن لست مِلكًا لنفسي، لا أستطيع أن أقول لا، صحيح لقد مضى ثلاثون عامًا وأنا بعيد عن يوستوس، هل يمكن أن يكون خلالها قد ضَل؟! هل يمكن أن يكون حقده عليّ وعلى ما وصلت إليه جعله يكفر ويتذندق؟!

نعم.. ربما يكون مفيستو فوليس على حق..

لكن..

هنا دخل مفيستو فوليس:

- لا وقت للتردد

جموع الناس بدأت والحراس ذاهبون لإحضار يوستوس والملك في الانتظار

- أنا أعرف يوستوس لا يمكن أن يكون زنديقًا

- أكنت تعرف شيئًا عن الدنيا من قبل ما عرفته عنها على يدي وبسبب

- ل...لا

- إذًا أنا أعرف أكثر منك، الأمر الآن أني أطالبك بأن تفي بواجبك تجاهي كما ينص العقد بيننا، لقد التزمت بكل ما وعدتك به

- إلا هيلانة

- ستجدها تنتظرك في مخدعك

- لكنه أمرٌ صعب على نفسي إن يوستس صديقي القديم!

- أتجده أصعب من أن تخسر كل ما لديك من سلطان ومتع، أصعب من أن تخسر الدنيا ولا تصل إلى حلمك الأكبر والحقيقة العظمي في حياتك، هيلانة الثمرة الناضجة التي طالما اشتهتها نفسك!

نظر فاوست إلى السماء طالبًا للغوث، فلم ير إلا وجه هيلانة يترآى له، وصوت مفيستو فوليس يضحك من وراءه.

***

في مخدعه..

كان ينتظر أن تدخل عليه هيلانة، ومنظر رأس يوستوس الطائر يطارد مخيلته، حاول أن يبعد عن مخيلته منظر هذا الرأس الذي يزعجه حتى لا يفسد عليه أجمل لحظات حياته، اللحظة التي ظل طول عمره ينتظرها، لحظة المتعة المطلقة، لحظة أن يحظى بأجمل حقيقة عاش من أجلها، ودخلت هيلانة..

تسارعت نبضات قلبه كحصان جامح يكاد أن يقز من أعلى صدره، إنها هي هيلانة بجمالها الرائع..

لكن!

لكن شيئًا ما لا يدرك طبيعته بدأ يداخله بشأنها شيءٌ يجعله لا يشعر بهيلانة ولا يشعر بجمالها ولا بمتعة النظر إليها، هناك شيء بداخله يحاول أن يبحث عنه كي يخرج إلى مشاعره كما كان يخرج بالماضي عندما يرى هيلانة أو حتى يمر طيفها بخياله..

إنها هيلانة.. ولكنه لا يستطيع أن يشعر بها، لا إنها ليست هيلانة.. اقترب منها شعرها هو الشعر الذي يعرفه كأنه الموج على كتفيها وعينيها هي العيون التي يحلم بها كأنها بحور من العسل وشفتيها هي شفتيها كثمرة الفراولة الناضجة، إنها هي، اقترب أكثر لكن عجيبًا أمرها. إنه لا يشعر بها، لا يشعر أن التي تقف أمامه هي هيلانة!

يقترب أكثر.. إنها هي.. لا.. إنها صورة من هيلانة، إنها جسد هيلانة بدون روحها.

إن هيلانة ليست جمال الشكل فقط، إنها جمال الروح أيضًا،

إنه قد أحب في هيلانة جمالًا ينبعث من روحها ويتزيّن بجمال جسدها، إن التي أمامه جسد بلا روح، إنها ليست هيلانة..

إنه يستطيع أن يعرف هيلانة من بين مئات النساء

هذه ليست هيلانة!

لقد خدعه مفستو فوليس

- من أنتِ؟

- هيلانة

- لا يمكن أن تكوني هيلانة

- ألستُ هي بشكلها وجمالها وفتنتها!!

- لكنك لستِ هي.. أنتِ شبيهًا لها.. هيلانة حقيقة وأنتِ زيف

- ومالك والحقيقة!

- لقد عشت من أجلها.. لقد عشت من أجل الحقيقة

- لا تخدع نفسك لقد بعت نفسك من أجل الزيف، فلا يحق لك أن تحظى الآن بالحقيقة

- أنا لم أبع نفسي

- بل فعلت

- وإن يكن.. لكني فعلت من أجل الحقيقة ومن أجل هيلانة

- هذه هي الحقيقة التي بعت نفسك من أجلها

-إنكِ زيف، لستِ حقيقة ، لن أحدي منك إلا ما حظيت من أمثالك من النساء، لكني أريد هيلانة بروحها الجميلة البريئة الصافية

-ليس لك إلا أنا الآن

- لقد خدعني مفستو فوليس

– لم يخدعك، لقد وافقت بكامل إرادتك وأعطاك كل ما تريد

– وأنتِ.. ألستِ خديعة!

–لا أنا هيلانة التي تستحقها

– إنكِ زيف، ليس فيكِ إلا صورة هيلانة، لكنكِ لستِ هيلانة الحقيقية

– هيلانة الحقيقية ليست لك الآن

– لقد خدعني مفستو فوليس.. يا ويلي، لقد خدعني مفستو فوليس

– أين هيلانة؟! أين يوستس؟! أين فاوست؟!

لمّت

الجاثوم

لقد كان المكان مظلم إلا من ضوء بسيط يطل عليه من بعيد شعر أنه لا يستطيع التنفس جيدًا وكأن حجرًا ثقيلًا يرقد على صدره، حاول أن يقترب من الضوء، حركته أيضًا كانت ثقيلة وكأن قدميه قد رُبِطا بأكياس رمل، ولكنه أخذ يكافح من أجل الوصول لهذا البصيص من الضوء، قلبه منقبض يعتصر داخله يستمر في الحركة المستحيلة للوصول إلى الضوء والتخلص من هذا الظلام الخانق، يزيد شعوره أن في هذا الضوء متنفسه ونجاته.

لا يدري أين هو إنه مثل القبر وهو بداخله مدفون يشعر بأن هناك نفسًا يأتي من ورائه يقترب منه رويدًا رويدًا لا يكاد يري يده في الظلام، ولا يستطيع أن يتبين ما حوله ولكن شعوره بأن هناك من يقترب من خلفه يزداد، يكاد يسمع أنفاس هذا القادم في أذنيه ويشعر بزفيره ساخن في رقبته ويشم رائحة نتنة يكاد تخنقه إن الظلام يزداد كثافة و بصيص الضوء يبعد يحاول جاهدًا أن يسرع من خطواته ولكن قدميه تزداد ثقلًا.

يكاد يشعر أنه سيصاب بالشلل والقادم المجهول يزداد قربًا منه، إنه لا يراه ولكنه يشعر وكأن هذا القادم شيطان أسود له مخالب كالنسر

في يديه يضعها على كتفه يريد أن ينزع روحه منه، ينتفض جسده بشدة عندما يشعر به يلمسه قرر أن يستغيث يصرخ تتجمد مفاصله ولا يخرج صوته، لقد أصيب بالبكم حنجرته لا ينطلق منها أي صوت ويده تتصلب جانبه ويقبض شيئًا على قدميه فيمنعه من الحركة، ثم يتوقف نفسه يشعر بأنه يختنق ويلفظ أنفاسه، يقاوم ولكن جسده كله أصبح كالمشلول فقد فقد سيطرته على جميع أجزاء جسده.

يقوم مفزوعًا ينظر حوله ما زال الظلام يحيط به، لكنه ها هو يستطيع الحركة، إنه ما زال حيًّا، حرك يده وتحسس قدمه، ولكن تنفسه كان سريعًا كأنه كان في سباق، مد أصابعه وضغط على الزر الذي بجانبه فانتشر الضوء في الغرفة، يعتدل على سريره ويتناول زجاجة الماء من جانبه ويتجرع وكأنه يسكب الماء بداخله ليطفىء نارًا مشتعلة و تفيض المياه من داخل فمه فتنسكب على صدره ثم يضع الزجاجة فارغة بجواره ويتمتم في سره.

انتقل من هذا العالم المظل، وبعد عدة دقائق كان في الشارع والنهار يتوهج حوله بشمس حارقة وتندفع من جسده حبات العرق التي بللت قميصه الأنيق وتجمعت حول صدره، فأصبح كمن خرج توًا من تحت الماء، فك رابطة عنقه قليلًا وأتجه إلى سيارته وأدار التكييف وانطلق، لم يعد يتذكر من ليلة الأمس شيئًا رغم صعوبتها

وانطلقت السيارة في صعوبة تشق طريقها إلى الشركة، يجد مكانًا بصعوبة ليصِف سيارته في أحد الشوارع الجانبية، يمسك حقيبته و يسير عابرًا جهنم أغسطس حتى يصل إلى باب الشركة.

يدخل إلى المنطقة الرمادية في حياته، الشركة تعج بالحركة، ألقى عبارات التحية بشكل روتيني وهو يتوجه إلى مكتبه ولمح بطرف عينيه مكتب المدير مفتوح لم يكن وصل بعد، ثم ألقي التحية على السكرتيرة وشعر بموجة باردة تخرج من تكيف مكتب المدير ممزوجة برائحة عطر السكرتيرة، فأخذ نفسًا عميقًا ليهدأ.

انتابه التوتر فجأة في تلك اللحظة، جلس على المكتب وبدأ يقلب في الأوراق حوله ويسجل ملاحظات هنا وهناك لكن كانت هناك دوامة عاصفة تدور في رأسه تمنعه من التركيز جيدًا، وبدأت نوبة التوتر تجتاحه مرة أخرى وارتجفت أصابعه فوقعت الأوراق التي أمامه، طلب فنجانًا من القهوة ومر عليه كثيرٌ من الزملاء ومر عليه الوقت يدوسه ويعصره بعد أن ابتلع خمسة فناجين من القهوة وحرق علبة كاملة من السجائر.

تعمّد أن لا يخرج كعادته من مكتبه من الحين إلى الآخر ليشبع فضوله في معرفة أخبار الزملاء، ولكن رأفت كالعادة دخل عليه كما كان يدخل كل يوم عند صلاة الظهر وهو يقوم بتنشيف يده من أثر ماء الوضوء قائلًا له:

ألن تأتي معنا صلاة الظهر!

ولا ينظر له هذه المرة بل يشير له بيده الممسكة بالسيجارة فيما معناه أنه مشغول.

لم يستطع أن يرفع عينه إليه ولكنه بعد أن خرج من المكتب متجها إلى ركن بطرف الشركة ليصلي هو وبعض زملائه، حانت منه التفاتة إليه وهو ساجد ثم لاحظ السكرتيرة وهي تنظر لهم من بعيد وفتح درج مكتبه ليخرج ظرفًا كان يحتوي على دعوة للفرح، شعر بغصة في داخله ونفَس سحابة كثيفة من دخان سيجارته وقال في نفسه: «يا لها من حمقاء كيف تفضّل هذا المخبول عليّ إنه، درويش في بدلة»

إنها لا تعرفه جيدًا! أكيد أنا الوحيد الذي أعرفه، عاشرته أربع سنوات بالكلية، صحيح كان متفوقًا ولكنه كان درويشًا بمعنى الكلمة، لم يكن من ضمن شلة أصحابي، ليس له في السهر والتدخين، كل ما كان يفعله في حياته المذاكرة والصلاة، لم يثر انتباه أي زميلة لنا، بل أظن أنه لم يثر انتباه أي فتاة في حياته، فلماذا هذه المرة هذا الأخرق يثير فضول الفتاة الوحيدة التي أحببتها وصدقت في حبها! بعد أن تبينت من شرفها واستقامتها، لماذا يكون هذا الأخرق دون الجميع من تقع في حبه هذه الجميلة الساحرة التي تأسر قلوب كل العاملين

بالشركة! كيف لم يستطع هو وهو مَن هو في عالم النساء «دون جوان» الشلة، كيف لم يستطع أن يظفر بها!!

ماذا أحبت فيه هذا الأخرق! إنه لا يجيد أي مهارة ولا يعرف أي شيء في الحياة غير عمله، هل أحبت فيه أنه يصلي في الشركة الظهر والعصر مع العمال وموظفي الأرشيف، كيف ترفضني هذه الحمقاء وتقبل أن ترتبط بهذا الأحمق؟!

لكنها أكيد ستندم، نعم ستندم أي ندم، وستكون لي يومًا من الأيام، ليس لشيء، ولكني لست أنا من ترفضه مثلِك من أجل مثله.

كان ينظر إلى ساعته والوقت يمر عليه وهو ما زال في مكتبه في هذا الجزء الرمادي من حياته، لقد عرف الدنيا على أنها كل شيء يشعره بالمتعة والسعادة، ولكن هذه الدنيا تحولت إلى حياة رمادية كئيبة، منذ أن رفضته سكرتيرة المدير وهو يشعر أنه إنسان ناقص مصاب بعاهة ما ويزيد هذا الإحساس كلما نظر إلى رأفت، لم يعد يريد شيئًا إلا أن يخرج من هذه البقعة الرمادية الكئيبة من الحياة إلى حياة الزينة والسهر، ولكن لن يستطيع هذا الأمر دونها. هناك شيئًا أخر يشعر به في داخله يختبئ في قلبه، ربما أو في عقله كلما أراد أن يبعدها عن فكره ليستمر في حياته كما كان، يمنعه هذا الشيء.

ينتهي اليوم كسابقه، يذهب إلى شلته على المقهي الذي اعتادوا أن يتقابلوا فيه، يجلسون طوال الليل يتبادلون النكات والضحكات

والدخان، لكنه هذا اليوم كان معهم بجسده و بعيدًا عنهم بذهنه، لم يكن كعادته ككل ليلة، كان يجلس وسط الدخان لكنه ما زال يعيش في المنطقة الرمادية الكئيبة في حياته، يتناول هاتفه وسط هذا الصخب الذي حوله ويطلب رقمًا يرد الطرف الآخر على هاتفه ويستمع إليه فترة قبل أن يقاطعه قائلًا: «لقد وعدتني منذ يومين ولم يحدث شيء»، ثم يصمت مرة أخرى مستمعًا إلى الطرف الآخر ثم ينهي المكالمة بقوله: «إذًا سيتم كل شيء الليلة صحيح، حسنًا منتظر الأخبار»

ويغلق الهاتف وهو ينظر إلى الدخان الذي يخرج من أنفه ويلتف على هيئة دوائر تتلاشى في السماء، لم يكن يسمع تعليقات الآخرين ولا كلامهم ولا نكاتهم.

انتصف الليل.. ذهب إلى منزله مرهق بأعصاب منهكة تمامًا، يسلم نفسه لسريره ويطفئ النور ويغوص في ظلام دامس يذهب، في النوم وتستلم روحه للشياطين التي تجلس فوق رأسه وتجثم على صدره وتعبث في أفكاره وأحلامه، و لليلة الثالثة على التوالي منذ أن قرر تنفيذ فكرته الشيطانية يزوره هذا الجاثوم الفظيع، ولكن هذه المرة يشعر أن هذا المخلوق الذي يطارده ويشل حركته ما هو إلا نسخة شديدة الشبه منه، ولكن بمخالب حادة تقبض عليه وتصيبه بالشلل التام فلا يستطيع

الحراك ولا الكلام ولا التنفس، ويقوم مفزوعًا كسابق ليلته متلهفًا على الماء ولكنه لا يجد ماء بجانبه، يقوم متخبطًا في الآثاث حوله ليصل إلى «الثلاجة» ويخرج زجاجة الماء البارد ويفرغها بأكملها في جوفه و يبدأ يومًا جديدًا من حياته الرمادية الكئيبة.

يصل إلى العمل، يدخل إلى مكتبه كالعادة بعد أن يلمح بطرف عينيه مكتب السكرتيرة، يمضي اليوم ببطء ولكن لأول مرة لم يأتِ رأفت إلى العمل فقلما يغيب، يسأل عنه الزملاء لكن لا أخد يعرف سببًا لغيابه اليوم، حتى خطيبته، ولم يتصل لكي يعتذر أو يطلب إجازة، كما أن تليفونه مغلق، استبد القلق بخطيبته وبدا واضحًا عليها بعد أن اتصلت بمنزله وعرفت أنه لم يعد من بعد صلاة العشاء بالأمس في المسجد وأن أهله قلقين عليه خصوصًا أن لا أحد من أصدقائه المقربين رآه منذ ذلك الوقت، ولم يخبر أحد أنه سيذهب إلى مكان بعينه.

تظاهر هو الآخر بالقلق وتعمد أن يسأل عليه واحدًا أو اثنين من زملائهما: هل عرف أحد لماذا لم يأتِ رأفت اليوم؟!

تراه كان سعيدًا ذلك اليوم لاختفاء رأفت، ربما ولكن لم تنقشع المنطقة الرمادية من حياته باختفاء رأفت عنها ولم تتبدل مشاعر السكرتيرة بعد أسبوع غياب لرأفت عن حياتها، والكل يتساءل أين ذهب رأفت! حتى ظهرت المفاجأة، لقد اعتقل رجال الأمن رأفت

لضلوعه في أعمال تخريبية من شأنها زعزعت استقرار الوطن ومناهضة الثورة وإثارة الشغب والإرهاب.

كانت هذه الأخبار صدمة للجميع إلا هو فقد أمسك بهاتفه ليشكر صاحبه الذي وشى برأفت عند رجال الأمن ورتب له دلائل الاتهام حتى يزج به في غياهب المعتقلات بلا رجعة، فهذه تهمة لا يغفرها النظام أبدًا، هكذا سيتلاشى من الحياة ولو عاد سوف يتحاشاه الناس وسيخلوا له الطريق إليها.

ومن يومها اختفى بالفعل رأفت واختفت أخباره، ولكنها لم تصفُ له كما كان يظن، ولم تنقشع السماء الرمادية عن حياته كما كان يعتقد إذا اختفى رأفت، وأصبح الجاثوم زائرًا ليليًا له.

ملتت

الضريح الأبيض

كان لابد و أن يفعل شيئًا وأن يتكلم لكنه لم يستطع،

كم كلفك هذا؟!.. لقد كلفك الحياة نفسها.

يشعر أن الفراغ في الغرفة ينحصر وجدران المبنى تقترب لتطبق عليه، أو أن الهواء يتسرب من داخل ذلك المبنى الأبيض الذي تهدمت بعض أجزائه من القدم وعبث الزمن، فهو لم يعد يستطيع التنفس يكاد يختنق.

قام واقفًا يذهب ويجئ في المكان الخالي إلا من هذا السياج النحاسي اللامع الذي ينتصف المكان، كانت أكوام من الظلام تخترقه من كل مكان، ولم يكن الظلام وحده هو الذي كان يحيط به ويحدق فيه ولكنه كان يشعر بعيون تختبئ هنا وهناك محدقة تنظر إليه من الشبابيك المحطمة.. امتلأت نفسه بالانقباض، أخذ يرتقي درج السلم متلمسًا طريقه في الظلام درجة بعد درجة، هدوء يسود المكان، من خلال الثغرات المحطمة في سقف الحجرة الملحقة فوق سطح المبني الأبيض، كان يستطيع أن يرى سماء الشتاء وهي داكنة الظلام إلا من ضوء خافت لهلال وليد.

أشعل عود ثقاب وشق طريقه وسط الحجرة وسحب نفسه من النافذة إلى خارج المبني وهناك عانق نور الهلال الخافت.

لفحته نسمات الفجر الباردة فسحب نفسًا عميقًا داخل رئتيه وعلى الرغم أنه كان يلهث متقطع الأنفاس إلا أنه أراد أن يواصل الصعود فتسلق عروقًا خشبية من خلف الجدار لتقوده إلى ظهر هذا المبنى الذي لم يكن سوى ضريح يُقال أن في بطنه وليًا من أولياء الله أتى إلى القرية منذ زمن بعيد وذاع صيته وكرامته، ولما مات دُفن في هذه البقعة على قمة هضبة في أول القرية وأحيط قبره بهذا السياج النحاسي الذي صقلته تمسحات المريدين به وزادته لمعة

في مكانه هذا على سطح الغرفة التي تعلو الضريح الأبيض وجد نفسه أعلى القرية التي ما زالت غارقة في النوم. كانت تيارات الهواء البارد تقاوم الإرهاق المتراكم خلف جفونه،

رفع يديه أمام عينيه يحاول أن يراها وسط هذا الظلام وكان ما زال يشعر بملمس الجلد الخشن على كفيه وما زالت رائحة الأنفاس القذرة عالقة بهما، شعر بقشعريرة تمر في جسده واشمئزاز يجتاح نفسه:

«آه»

تنهد في عمق

ما الذي أوصلك إلى هذا المصير؟!

ظل مكانه متجمدًا لا يريد أن يتحرك، ربما لم تعد لديه رغبة لمزيد من الحركة ولا رغبة في الحياة أو ربما انتابته حالة من الذهول والخوف والإنكار، فظل هكذا قابعًا مكانه حتى اخترقت الكون خيوط الفجر واكتُشف أمره مع أول زائر للضريح جاء يتبرك به، ثم..

ثم غمر أفراد الشرطة المكان.

ما الذي أوصلك إلى هذا المصير؟!

في السجن تتوقف الحياة، تدفعها أيادٍ وحشية في رتابة مملة والضيق كالجبل يجثم فوق الصدور، حتى صدور الحراس

من قال أن مشكلة السجين فقط فقدان الحرية! إنه يفقد أشياء كثيرة جدًا، كل ما كان يملكه، كل قدراته وأحلامه وطموحاته وتتسرب إلى نفسه برودة الموت وعفونة القبر، كل آشعة شمس تمر عليه من بعيد يعتبرها آخر صباح، وكل حُمرة أفق يراها من نافذة الزنزانة هي نزيف آخر يوم في حياته حتى يصل إلى المرحلة التي يختلط فيها الزمن داخل عقله فتنتهي أزمته مع الحياة ليعيش في واقع جديد إنسان بلا حياة.

ما الذي أوصلك إلى هذا المصير؟!

أنت تعي جيدًا كم من ليالٍ دخلت في ذاتك ورُحت تتأمل، ما زلت تذكر ذلك اليوم البعيد حيث امتدت يدك إلى كتاب الورق والحبر الأسود، كان يتحدث عن الإنسان إلى الإنسان.

يغوص في أعماقه ويستخرج أشياء لم يكن يعرفها من قبل،

امتدت يدك إلى كتاب آخر ثم آخر، أدمنت القراءة، عرفت .. وليتك ماعرفت!!

نظرت حولك.. تعجبت كيف كل هؤلاء البشر يعيشون بدون الحقيقة.. ما أصعب أن تعرف الحقيقة؟!

وما فائدة أن تفهم وكل من حولك لا يفهمون.

تكلمت.. ظنوك مجنون، تكلمت وتحدثت إلى الناس، كثر كلامك وكثر الكلام عنك.

كنت تعرف ماذا تقول لكنك لم تدرِ ماذا قالوا عنك!

إنك كنت تحطم «التابو» الذي ظلوا أعوامًا طويلة يقدسونه، كنت تنال من الضريح الذي يتبركون به وينذرون له النذور، هذا الضريح الأبيض الذي يقبع على رأس القرية، إنه سر حياتهم ومقبرة أسرارهم، وهناك يسكن خادم الضريح الشيخ المبروك.

الشيخ مبروك المبروك، الرجل ذو العمامة الخضراء والأنف الأفطس والذقن المتناثرة وكأن شعيراتها على خصام مع بعضها البعض، والذي اكتسب سلطته على أهل القرية من شرف خدمته للضريح، لقد منحه الولي المزعوم المقبور بركته فأصبح بالتالي يمنح البركة والأمان ويلجأ

إليه الضرير والكسيح والعقيم ثم ينطلقوا يتغنون بقدرته وهم ما زالوا بين ضرير وكسيح عقيم وهو تنتفخ جيوبه من النذور.

لذلك كنت في نظرهم مجنونًا والآن مجرمًا، فكيف تجرأت على صاحب الضريح! كيف سولت لك نفسك أن تقدح في بركته وتتهمه بالدجل والنصب! كيف تجرأت عليه، أهي الكتب التي قرأتها؟! ماذا قالت لك تلك الكتب؟! إنها أفسدت عليك عقلك وأصابتك بالجنون نعم الجنون والجحود!

كيف تجرأت وكفرت به وقد عشت سنوات متزوجا بامرأة جميلة، بسيطة الحال والجسم والتفكير، ترجو أن يكون لك منها ولدًا.

لم يسعفك كل ما قرأت ولم يساعدك الطب والعلم، ذهبت هنا وهناك بزوجتك ولم يشفِ أحد غليلك، حتى أضطرت زوجتك أن تطرق آخر باب لها وترضخ لضغوط نساء القرية بعد أن أكدوا لها أن الحل في يد مبروك المبروك وأنك ستعود إلى رشدك وتبتعد عن الخبل الذي أصابك إن أصبح لك ولدًا، وربما لو لم تنجب منها سوف تبحث عن أخرى.

فطرقت باب المبروك، وحلت بركته!!

فكيف سولت لك نفسك أن تتسلل إلى الضريح الأبيض في جنح تلك الليلة وتقتل المبروك بعد أن كان له الفضل في شفاء زوجتك من

العقم، بعد سنوات عشر لم تنجب منها ولدًا، لقد توسلت إليه رغم علمها أنك تكفر به وتحاربه ليمنحها البركة وتنجب الولد وقد أعطاها بركته.. كان يعلم أنها زوجتك وأنك تناصبه العداء في كل أنحاء القرية تتنقل بين المقاهي تقلب ضده الناس وتنصحهم أن يمنعوا عنه المال ويسقطوا عنه التقديس، رغم كل ذلك قدم لزوجتك يد العون!!

أعطاها بركته، أيكون هذا هو جزاءه!

تتسلل إليه في جنح الظلام وتكتم أنفاسه وهو نائم داخل حجرته فوق الضريح الأبيض المقدس ولم تمنعك قدسية المكان ومكانة الولي وبركة المبروك عن أن تكتم أنفاسه.

لم يستطع القاضي أن يصل وهو يحكم عليك بالمؤبد إلى مبرر لقتل المبروك إلا ما قاله ممثل الأدعاء أن الكتب أفسدت عقلك وصورت لك المبروك شيطانًا فأخذت على عاتقك أن تحاربه وتقلب الناس ضده، فلما فشلت، سول الجنون لك أن تقتله.

وأنت قد آثرت الصمت لم تدافع عن نفسك مما أقنع الجميع أن الكتب أفسدت عليك عقلك.

ما أوصلك إلى هذا المصير؟!

هل كان يجب عليك أن تقتله؟!

سؤال كان دائم الإلحاح على ذهنك، ماذا لو لم تكن تعرف الحقيقة، هل كنت ستقتله؟، أقتلته لأنه كان دجّالًا؟!

أقتلته لأنه كان «تابوهًا» يعبده الناس؟!

أعرف أنه لم يكن هذا هو سبب قتلك له، أعرف أنك لن تتكلم، وستظل تسأل نفسك نفس السؤال لأنه صعب عليك أن تصرّح بسرّك وبسر زوجتك وسر الجنين الذي نبت في أحشائها، صعب أن تعترف بأن السبب كان أنت وليس هي!!

تمّت

حالة متأخرة

كادت أطرافه تتجمد من البرد قام من على الكرسي وذهب يبحث هنا وهناك عن أي غطاء يتدثر به في هذه الليلة شديدة البرودة من شهر يناير والسماء بالخارج تشبع الأرض مطرًا يجري سيولًا ويفرش الطرق الترابية بطبقة سميكة من الطين اللزج الذي يصعب الحركة عليه، لم يجد أمامه إلا هذا الغطاء الأبيض صحيح كان خفيفًا وصحيح لم يعد لونه أبيض لكن لا يوجد غيره يساعده بعض الشيء في هذا الجو القاسي.

نظر إلى ساعته قد قاربت الواحدة بعد منتصف الليل كانت الليلة تبدو هادئة غير الليالي السابقة، وربما ساعد في هذا الهدوء الغير معهود هذا الطقس السيئ، برد ومطر وطرق مقطوعة ببرك المياه والطين اللزج، لن يجرؤ أحد أن يأتي إليه في هذا الوقت إلا إذا كانت لديه مشكلة خطيرة، فآخر مريض كشف عليه منذ ساعة تقريبًا كان يعاني من قئ دموي نتيجة دوالي مرئ وقد قام بالإسعافات الأولية له قبل أن يستدعي النائب أخصائي الباطنية الذي قام بدوره إلى حجزه في عنبر الأمراض الباطنية بالمستشفى، ومنذ ذلك الوقت انقطع توارد المرضى على

استقبال المستشفى الباطنية، واختفت الممرضة المسئولة معه عن هذه «النبطشية» الليلية داخل غرفة الممرضات في بداية مدخل الاستقبال بجوار مكتب الدخول الذي كان يجلس فيه أستاذ إبراهيم الموظف المسئول عن قطع تذاكر الكشف وعمل ملفات الدخول والحجز لمن يحتاج من المرضى، وبجواره قبع عمّ حليم العامل الموكل بنظافة الاستقبال الذي قلما تجده نظيفًا، والذي كان يقوم بنقل المرضى إلى أقسام الحجز الداخلية على الترولي المعدني ذو العجلات الشبه دائرية أو الكرسي المتحرك الذي التوَت عجلاته وذلك عن طريق المصعد المتهالك الذي لا يعمل إلا بالدعم الفني كل ست ساعات.

ويبدو أن الأرهاق والبرد جعلهما يغُطا في نوم داخل الغرفة المصنوعة من الألوميتال والزجاج، وقد أدار أستاذ إبراهيم راديو صغيرًا بجانبه وكان صوتًا ضعيفًا يصل منه إلي حيث غرفة الكشف التي كان يجلس فيها رأفت طبيب الامتياز، وبصعوبة استطاع رأفت من صوت هذا الراديو الصغير الذي يحتفظ ببطاريته على ظهره برباط مطاطي سميك، أن يميز صوت أم كلثوم وهو يأتي هزيلًا مشوشًا خلال هذا السكون والهدوء الذي هبط فجأة عليهم بعد آخر حالة، حتى أنه لم يستطع أن يميز كلماتها ولكنه ميّز أنها تغني «وقف الخلق» من اللحن المصاحب.

ويبدو أن الجو الذي أشاعه هذا الصوت الغير واضح من الراديو وهو يشق هدوءًا باردًا جعل رأفت يذهب بذهنه في جولة من الماضي إلى الحاضر مستشرفًا المستقبل فها هو بعد ست سنوات من الدراسة الشاقة ومطالعة آلاف الصفحات من المراجع وسماع مئات المحاضرات في علم التشريح والأنسجة ووظائف الأعضاء والأمـراض وعلاجها والأدويـة وتركيباتها، والضغوط النفسية والعصبية التي مر بها مع زملائه لاجتياز الامتحانات والاختبارات الكتابية و الشفاهية، وهم يحلمون بيوم تخرجهم ليلقبوا بلقب الدكتور فلان، وحينئذ سوف تفتح لهم أبواب النعيم وسيصير الواحد منهم ملء الأسماع والأبصار ونجمًا من نجوم المجتمع.

وإذا به يهبط من سماء هذا الحلم ليرتطم بأرض الواقع، فبعد ست سنوات من الدراسة الشاقة يفاجأ أنه لم يفعل أكثر من مسافر لم ينجز من سفره الطويل إلا ترتيب حقيبته وعليه أن يأخذها ويبدأ رحلته بالبحث عن وسيلة مواصلات تأخذه إلى هدفه، وفي هذه الرحلة كلما ينزل من وسيلة نقل يجد أنه لم يصل بعد وفي حاجة لأن يستقّل وسيلة أخرى حتي يصل لهدفه.

والمؤلم أن كثيرًا منهم يضل طريقه ويظل في تيه ينتقل من مواصلة إلى أخرى ولا يصل، والبعض ينزل في منتصف الطريق

متخليًا عن حلمه في الوصول، وقليل من يجد الوسيلة الصحيحة والسريعة لكي يصل إلى هدفه، بعد ست سنوات يكتشف أنه مخلوق ذو بالطو أبيض يحمل أكياس الدم ويقوم بدور ثانوي في منظومة غير منظمة وعلى قدر أنه دور ثانوي، إلا أنه دور مهم لا تستقيم المسرحية بدونه ولا تكتمل، فهؤلاء المخلوقات هم من تقوم عليهم خدمة استقبال المرضى في معظم المستشفيات وهم من يقومون بالمهام الطبية فوق مهام وظيفة الممرض وتحت متطلبات وظيفة الطبيب، إنهم أطباء الامتياز.

كان البرد يؤلمه في هذه الليلة ويؤلمه أن ينظر إلى المستقبل من خلال نفق مظلم، فبعد أن كان يحلم بأن يكون نجم مجتمع وجد أن نجوم المجتمع ليسوا في حاجة لأن يكونوا متفوقين ولا أن يقوموا بكل هذا المجهود وضياع كل تلك السنوات من عمرهم، إنه أمر بسيط، أبسط مما كان يتخيل لو قام بواحد على ألف من هذا المجهود لكي يتقن إحراز الأهداف في الشباك أو للتمرين لإجادة الغناء بكلمات مثيرة أو شعبية من تأليف هاوٍ قهوجي أو مكوجي لكان الآن ملء السمع والبصر وأمواله تملأ خزائن البنوك.

صحيح إنه منطق أعوج ولكنه المنطق الذي يعترف به المجتمع، ولماذا يستغرب هذا الأمر على المجتمع الذي يعيش فيه، فهذا الحال

هو حال كل دول العالم، ولكنه تذكّر كلام أحمد زميله الذي يجلس الآن مثله في استقبال «الجراحة والنساء والتوليد» بالمبنى المقابل لمبنى الباطنية، فأحمد كان ممن أسعدهم الحظ للسفر للخارج وذكر له عن أحوال الأطباء خارج مصر، فالطبيب في الدول المتقدمة مثل أوروبا وأمريكا له امتيازات متعددة.

واستدعى تذكُّره لحديث صديقه قول أحد أساتذة الجراحة ذات يوم لهم أن الدول المتقدمة تُعلي قدر ثلاث مهن لما لهم من صلة بأهم ثلاثة قيم في حياتهم، وهم الطبيب والمحامي والمعلم، لأنهم مسئولون عن صحة الإنسان وحقوقه وتعليمه ولكننا مجتمعات مصابة بالعظمة الكاذبة وذلك لأن العظمة فيها، كالمريض المصاب بانتفاخ تظنه عظيمًا ولكنك تفاجأ أن هذا الانتفاخ إما يحتوي على هواء أو يحتوي على مصيبة، وهو طول الوقت يتألم منه وسبب هذا أنه يجهل الفرق بين الصواب والخطأ وبين الغث والثمين وبين ما يفيده وما يؤذيه وتختلط عنده القيم والمبادئ.

وعندما سأله أحدهم عن الحل في هذا الوضع قال له: «ننتظر لما حد يشخص الحالة وساعتها ممكن نعرف الحل»

سكت صوت أم كلثوم فجأة ربما لضعف البطارية أو ربما أغلقه أستاذ إبراهيم لأن صوته أفسد جمال صوت أم كلثوم فلم تعد لا

الكلمات ولا اللحن واضحين وأصبح مصدر إزعاج فقط، وشعر في هذه اللحظة رأفت بأن رأسه يداعبها النوم لولا البرد، فقام من على الكرسي وقرر أن يستلقي على السرير المخصص للكشف على المرضى متدثرًا بالغطاء الشبه أبيض، وحين همَّ بذلك سمع صوتًا خارج حجرة الكشف تبين بعد لحظات أن هناك من هو قادم في هذا الشتاء القارس للكشف، لا بد وأن تكون حالة خطيرة وعرف الآن لماذا سكت راديو أستاذ إبراهيم، لكي يقطع تذكرة كشف للمريض القادم.

عاد رأفت أدراجه وجلس على مكتبه ووضع الغطاء مكانه على سرير الكشف وتهيأ لاستقبال الحالة المرضية القادمة. سمع صوت نقر عمّ حليم على غرفة الممرضة سناء التي يبدو أنها غطّت في النوم لأنها لم تجب من فورها، ولكن بعد قليل وجد سناء الممرضة تدخل مكتبه وهي تفرك عينيها من أثر النوم:

«كشف يا دكتور»

أومأ رأفت سامحًا لها بدخول المريض، دخلت سيدة عجوز تخطت الستين في جلباب أسود وطرحة سوداء خفيفة تغطي به معظم رأسها وجزء من وجهها وإن بدت ملامح وجها المجعدة وبعض من خصلات الشعر الأبيض من تحت الطرحة، وتنتعل شبشبًا بلاستيكيًا كساه الطين ودخل إلى قدميها، ومن وراءها فتاة ربما تكون تخطت

الخامسة عشر من عمرها في جلباب مزركش برسوم الورد وألوان فاقعة يطغى عليها اللون الوردي والأزرق وطرحة زرقاء مسدلة من رأسها إلى كتفيها دون اكتراث، كانت نحيلة بعض الشيء ويبدو على وجهها علامات التألم وتضع يدها اليمنى على بطنها واليسرى في وسطها وتسير حافية القدمين وقد تلطخا بالطين.

وعندما دخلت الاثنتان ظهر على باب العيادة رجل في الأربعين من عمره ولكن يبدو عليه الوهن، فهو قصير بعض الشيء ونحيف لدرجة أن رقبته ووجهه تستطيع أن تميز بهما الوضع التشريحي للأوردة بكل وضوح، وكان ذو عينين جاحظتين بعض الشيء ويبدو عليه أنه جاء لأن الأمر يستدعي أن يكون هناك رجلًا، وكان يرتدي جِلْبابًا رماديًا ويلتحف شالًا سميكًا من الصوف ليحميه من البرد.

ورغم أنه كان واضحًا أن الفتاة هي المريضة إلا أن رأفت قال في شكل روتيني لهم:

من المريض؟!

أجابت العجوز : «زهرة يا سعادة الدكتور، من فترة وهي بتشتكي من بطنها مغص واليومين دول عندها انتفاخ ما بيرحش وزاد النهاردة بعد العشا وجع ومغص عملت ليها شوية نعناع بس كل شوية الوجع بيزيد قلت لأبوها لازم ولا بد نجيبها المستشفى، أنت عايزها تروح

زي أمها، أيوه يا دكتور أصل أمها ماتت ببطنها، جالها والعياذ بالله ميه على الكبد و ماكملتش سنة وماتت»

وقف رأفت ليقطع استرسال العجوزة التي وضح من كلامها أنها جدة الفتاة، وهذا الواقف بالباب والدها، وطلب من سناء مساعدة زهرة للصعود على سرير الكشف وتغطيتها بالغطاء الشبه أبيض ليقوم بالكشف على بطنها، وفي هذه الأثناء بدأ يسأل زهرة ليأخذ منها التاريخ المرضي كما تعلّم وفي نفس الوقت كان يتفرس وجهها وعينيها ويديها وقدميها فقد كان أساتذته يعلمونهم أن الطبيب الماهر يحصل على التشخيص المبدأي لمريضه من وجهه وعينيه قبل أن يمد يده بفحصه وهذا يساعده في طرح الأسئلة التي تفيده في الوصول للتشخيص السليم وفي نوعية الفحوصات التي يجب أن يطلبها للمريض كي تساعده في الوصول للتشخيص ووصف العلاج.

وطبعًا العجوز أهدت له معلومة قيمة وهي أن أم المريضة ماتت بأحد أمراض الكبد المنتشرة في مصر نتيجة للالتهاب الكبدي والبلهارسيا عند الفلاحين والبنت جاءته حافية القدمين فهذا أمر وارد جدًا.

بدأ يسأل زهرة وزهرة تجاوب بإجابات مقتضبة ناقصة على استحياء، وأحيانًا أخرى تصمت فتبادر جدتها بالإجابة عنها فيطلب

رأفت من العجوز في رفق أن تتركها هي تجاوب قائلًا: «هو أنتِ صغيرة يا زهرة اتكلمي أنتِ»

فترد العجوز عنها مرة أخرى:

«أيوه صغيرة يا بيه هي عارفة حاجة»

وبمساعدة سناء بدأ رأفت بالكشف على زهرة فنظر إلى بياض عينيها باحثًا عن لون أصفر قد يكون دليلًا له ثم جعلها تفتح فمها ونظر إلى لسانها وحاول أن يشتم رائحة الأستون في نفسها كدليل على مرض الكبد، ثم انتقل للكشف على بطنها والجدة تتابعه، أما الأب فكان بباب العيادة يتلفت هنا وهناك ثم يتابع سناء بعينيه الجاحظتين.

وما أن وضع رأفت يده اليمنى على بطن زهرة حتى أصابه فزع لم يبده، ولكن الاستغراب الذي ارتسم على ملامحه بعد لحظات من الكشف الجيد على بطنها المنتفخ أثار فضول الجدة ولم ينتبه إليه الأب الذي كان في ملكوت آخر يتابع سناء، وضع رأفت يديه الاثنتان حول البطن المنتفخ يتحسسه، فيضغط بواحدة ويتحسس بالأخرى ثم يفعل العكس وزهرة يشتد ألمها في كل مرة لدرجة أنها كادت أن تصرخ.

وفجأة شعر بشيء غريب على حذائه، نظر تحته فإذا بقطرات سائل تسقط من على سرير الكشف على حذائه لم يتبين ماذا حدث

بالظبط في الوهلة الأولى وظن أن ماء المطر بدأ يتسرب من سقف عيادة الكشف أو أن ملابس زهرة كانت مبللة من المطر فبللت بالتالي السرير، أو أن زهرة لم تتحكم في نفسها فتبولت من الألم، لكنه سريعًا ما تبين الوضع، رفع يده ثم عاد إلى مكتبه خافضًا رأسه وهو مستغرق في التفكير ثم نظر إلى الأب والجدة اللذين تعلقت عيناهما بوجهه وتعبيراته دون أن يتكلما، وزهرة ما زالت في ألمها.

قال له الأب:

«يا دكتور مش حتديها حقنه للمغص»

نظر رأفت إلى هذا الوجه كان يبدو أنه لن يفهم شيء من كلامه إن تحدث إليه ثم نظر إلى الجدة التي بدأت تتفرس فيه ثم قال للأب:

«بص يا عمّ فيه علاج مهم لازم تخده البنت بس موجود في استقبال الجراحة الجهة المقابلة روح دلوقتي حالًا بالبنت هناك معاك هذه الوصفة للدكتور أحمد وقول له الدكتور رأفت هو الذي أرسلني»

تناول الرجل الوصفة بعد أن كتب رأفت بها شيئًا وقال: «يعني العلاج ده مش موجود هنا»

رد رأفت في حزم واقتضاب:

«لا مش موجود هنا ولازم تروح دلوقتي حالًا هناك من غير ثانية تأخير»

نظرت سناء إلى رأفت في استغراب فقال لها رأفت: «نادي حليم يساعدهم»

قامت زهرة وهي ممسكة بطنها أمام والدها الذي قادها للخروج وهي متألمة وكان حليم يدلهم على الطريق وخلفهم ذهبت الجدة التي ما إن خرجت زهرة وأبيها من باب الاستقبال حتى عادت أدراجها إلى الطبيب رأفت تسأله:

«هو زهرة فيها إيه يا دكتور؟»

تلعثم رأفت قليلًا ثم سأل العجوز:

«هي زهرة مخطوبة أو متزوجة يا خالة؟»

ردت في استغراب: «أبدًا يا دكتور، هو فيه إيه بالظبط ما تخبيش علي أنا ست كبيرة؟!»

نظر إليها رأفت في شفقة قائلًا:

«زهرة بتولد يا خالة»

لطمت العجوز وجهها وصدرها قائلة:

«بتقول إيه يا دكتور.. إزاي الكلام كده، إزاي الكلام ده..»

وهرولت خارجة من الاستقبال لتلحق بهما، جلس رأفت على الكرسي لا يستوعب الموقف هو أيضًا، الفتاة لا يبدو عليها

شيء، كل ما يبدو عليها هو الجهل والفقر وليس العهر، والأب كذلك والجدة.

هل يؤدي الجهل والفقر إلى الخطيئة كما يؤدي إلى المرض؟!، قال رأفت في نفسه وكأنه يحدِّث هذا الأستاذ الذي ذكر أن المجتمع قد يعاني من انتفاخ العظمة الكاذبة :

«يبدو أن الانتفاخ أحيانًا لا يكون عظمة ولا مرض، ولكن قد يكون عارًا وخطيئة.. ولكن ماذا بعد التشخيص كيف سيكون الوضع في علاج حالة مثل هذه، إنها مأساة ومصيبة !»

ثم تذكّر أنه يجب أن يتصل بصديقة الطبيب أحمد ليخبره عن هذه الحالة ليحسن التعامل معها، صحيح أنه وضّح له ذلك في التحويل لكن يجب عليه أن يكلمه ربما هم الآن يقفون أمامه، ذهب إلى مكتب الدخول، أمسك بالتليفون ليكلم أحمد في الاستقبال المقابل، رد عليه أحمد وحكى له عن هذه الحالة المأساوية، ولكن أحمد قال له «لم يأتِ أحدٌ من عندك بأي تحويل»

قال: «ربما على باب الاستقبال»

رد أحمد سأخبرك إن جاءوا وسأقوم باللازم، بعد نصف ساعة اتصل أحمد برأفت ليخبره أن أحدًا لم يأتِ إليه كما قال.

وضع رأفت السماعة و هو يسأل نفسه يا تري ماذا حدث؟! أين ذهبوا؟!

سأل حليم: «هل وصلتهم إلى استقبال مستشفى الجراحة والنساء والتوليد»

قال حليم أنه وصلهم إلى خارج الاستقبال الباطني ثم أشار لهم إلى باب الاستقبال الآخر ولم يصحبهم.

«الجو كان برد جدًا يا دكتور ومطر شديد»

وعاد رأفت يسأل نفسه إذًا ماذا حدث؟!

«هل أخطأت في التصرف؟! لا أدري»

دخل إلى عيادته ولم يفارقه التفكير في هذه الحالة وهذا الموقف إلى الصباح.

وشق النهار طريقه إلى المستشفي وقد ناظر رأفت بعد هذا الموقف بضع حالات أخرى حتى دبّ الصباح بنشاطه في أرجاء المستشفى.

ولكن هذه الحالة المتأخرة حضاريًا وأخلاقيًا خلّفت في نفسه ندبة، فلقد شعر أن هناك أمراضًا أشد خطرًا من الأمراض المزمنة والأورام في حاجة إلى علاج وإلا النتائج ستكون كارثية.

وفِي اليوم التالي كان هناك حديثًا عن حادثة قطار دهس فتاة في عمر الخامسة عشر وقد تم العثور على جثتها ممزقة عل قضبان السكة الحديد.

لمست

انبعاثة

فجأة أحست بفورة في دمها تندفع إلى وجهها وخفوق بقلبها وهزة بجسمها، ارتدت إلى الوراء ورفعت عينيها، وحدّقت لمدة لحظة خاطفة كمن روّعها شيء غير متوقع، نعم لم تتوقع هذا أبدًا.

صوّبت شاخصيها إلى نهاية الحديقة.. «كأنه هو»

كأن الزمن يفاجئها به، ليبعث ما دفن ويرد فيه الحياة ...

غريبة هي الأقدار.. وقاسية.. أو رحيمة.. لا تدري.

طرفت بعينيها وتجدد تدفق الدم إلى وجهها وأرخت أجفانها بأهدابها الطويلة التي ما زالت تحتفظ بسر جمال عينيها وسحر نظراتها.

حاولت عبثًا أن تطرد الصور المتلاحقة والمشاعر التي أخذت تنفض من عليها تراب قبرها في داخل دهليز بعيد بنفسها.

كيف يمكن أن تمتزج السعادة التي لا حد لها بالأسى الذي لا حد له؟!

إنه هو.. إنها الآن تذكر جيدًا أول حديث دار بينهما، بل أول كلمة نطق بها، إنها تذكر الآن كيف كان ينظر إليها.. وكم كانت بنظراته دفء عجيب يسري في أوصالها، كم كانت تحب أن ينظر إليها..

إنها تذكر الآن كيف كان أول لقاء بينهما وكأنه لم يكن على الأرض بل كان في الجنة حيث الزهور والأشجار تحيط بهما وتتمايل طربًا بينهما، وأصابع خفية من النسيم المحمل بشذى الورود يلامس وجهيهما.

كانت أول مرة تشعر بهذا الشعور في حياتها.

- إن ابتسامتك جميلة، لماذا لا تبتسمين دومًا؟ أهكذا.. كل السعادة مرة واحدة، في جرعة واحدة.. في لحظة واحدة!

كم أخافها هذا كما أسعدها.

واجهته بنظرة آسرة من عينيها الساحرتين تملكته وتمكنت من فؤاده ولكنها تراجعت.. كان شيء بداخلها يمنعها، ربما إحساسها بأن هذا المجتمع لا يستطيع تحطيم الحدود التي وضعها بينهما، أو ربما لأنها أضعف من أن تجتاز تلك الحدود.

عندما حاولت أن تتكلم بما في قلبها وجدت لسانها منعقدًا وشفتيها جامدتين ففضلت الصمت. لكن هذا لم يمنع كل منهما أن يسمع في الصمت مناجاة قلب الآخر المتواصلة رغم حواجز المادة وفوارق المجتمع، إنها فوارق مجحفة غير منصفة لا تعطي الحقوق لأصحابها، هل لو كان هناك عدل كانت ستوجد تلك الفوارق والحدود!!

مر الوقت والزمن والصمت حائر بينهما، وعندما كان الكلام كانت موضوعاته لا تحمل مضمونها بل على اختلافها تقول شيء واحد، تقول إنهما سعيدان بمجرد الحديث، وكأن كل منهما كان يتنفس كلام الآخر فتنبض الحياة موفورة بالنشاط في جانبيهما ولكنها كانت سعادة موتورة متوجسة، سعادة تعلم في داخلها أنها غير باقية.

كانت تريد أن تقول له أحبك وكان يريد أن يقول لها أحبك

الحب ما أجهل الناس به!

إنه احساس خيالي يحدث في الواقع لكنه منذ قديم الأزل هو الإحساس المجني عليه من الواقع بالفوارق والموانع، كانت في بعدها عنه كدنيا غابت عنها الشمس ولملمت من على وجه الزهور أشعتها، إنها تذكر آخر لقاء وتسمع في وجدانها صراخ روحها وضجيج قلبها، لقد حُكم على حبها أن لا يكون مثالًا لحب كامل، غاب من أمام عينيها وغربت ملامحه عن دنياها وبقت كزهرة من أزهار الخريف منكسرة، عاشت بعده فترة لا تعرف ماذا تريد!

إن في أعماقها إنسانة تعيش على حافة الدنيا ضائعة الملامح تسأل نفسها أكانت هي السبب؟!

أكان هو؟! أم كان السبب الفقر والمجتمع والتقاليد المتعسفة؟!

كانت بعده تطوف المدينة وتمر بالمواضع التي جمعت يومًا بينهما، كانت في حيرة وليس هناك أشد من حيرة محب ضاع حبه.

أعادت النظر إليه بعد كل هذا الزمن يعيده إليها الزمن،

طرفت عينيها ثم أغمضتهما ثم عادت تفتحهما ثانية لترمقه بشدة.. إنها لا تصدق اللحظة.. أتراه يعرف أنها هنا، هل ما زال يتذكرها،هل ما زال يحبها، أم تراه نساها!

لن تلومه فقد علمتها السنون أن كل ساخن لا بد وأن يأتي عليه الوقت ويفقد سخونته، وأن الزمن لا يتجمد عند لحظة أو شعور بعينه.

همت أن تتجه إليه تناديه أو تثير انتباهه ليشعر بوجودها

لكن..

وبدأت لكن هذه تنمو بسرعة في شعورها وتتضخم وتسيطر عليها، لكن شيء ما وراء هذه الذكريات التي انبعثت فجأة حية في شعورها تمنعها أن تبقى حية إن شيء تحت الجلد و داخل الجسم قد تغير.

تسلل الشرود إلى عينيها اللامعتين فأطفأ اللمعة بهما، وانطفأت في لحظة تلك الومضة التي انبعثت بداخلها وسكنت نفسها فجأة عن استرجاع الذكريات وتحرك بداخلها شئ يقف أمامها ويجمدها

في مكانها، ويحرم عليها أن تحاول بعث الحياة في شعور قد دفن بداخلها.

وانتبهت فجأة على يد تربت على كتفها فالتفتت إليها لتطالعها فوقع بصرها على اللون الذهبي الذي صار تحت بصرها الشارد، تحرك اللون الذهبي المسترسل ليظهر من تحته عينان كالزمرد واسعتان كأنهما بحيرتان بريآتان صافيتان.

– تأخرنا يا أمي على بابا.. لقد انتهيت من التدريب زمان بابا عاد من العمل وفِي انتظارنا.. أمي.. أمي!!

أخذت تهز رأسها كأنها تنفض عنها شيئًا علق بها

« أمي.. هل بكِ شيء.. لماذا تنظرين إليّ هكذا!

أقول لك أننا قد تأخرنا «

«لا.. لا شيء حبيبتي عندك حق لقد تأخرنا.. لقد تأخرنا كثيرًا»

لمّت

فقدته

بدأت الأشياء تغيب تتلاشى شيئًا فشيئًا وكأن موجة من الضباب الكثيف بدأت تغطيها وكأن الدنيا تختفي حتى شعوره بما حوله بدأ يخبو ويتباطأ الإحساس ولا يوجد استجابة.. الألم يتلاشى.. السعادة تتلاشى.. الحزن يتلاشى..

الرؤية تتلاشى..

كأن شيئًا ثقيلًا يدفع رأسه إلى أسفل ويضغطها فتنبعج ربما أو تتمدد، شيء مثل هذا الإحساس وكأنه يغوص في فضاء بعيد، ثم سكون وهدوء، ثم لا شيء، توقف كل شيء، أصبحت نظراته إلى لا شيء، ولا يمكن أن يسأله أحد الآن ماذا بك؟!

ولا يمكن أن يجيب هو، الكل ينظر إليه، يقلِّب في يديه ويفحص رأسه، ويحدقون في مقلتيه، يقتحمونها بضوء شديد مركّز ومستقيم يخرج من كشاف طويل دقيق ثم ترتد الأبصار بلا تفسير، أين هو الآن؟!

لا يدري أحد.

هل مات؟! يموت الإنسان حين يتوقف قلبه عن النبض

حين تغادر الروح هذا الكيان الذي تسكنه وحين يغادر الأمل وحين تغادر السعادة،

فهل مات؟!

ما زالت تنظر إليه تحاول أن تفهم أين ذهب؟!

إنه يرقد على سرير بالعناية المركزة أمامها ولكنه غير موجود.. أين ذهب؟!

هل يشعر بِهَا؟! بالتأكيد لا.. ربما نعم.

في الحقيقة لا أحد يدري على وجه التأكيد.

أنه عمليًا هو والعدم سواء، إنما علميًا هو ما زال موجودًا وتعترف به القوانين، ما زال أسمه مسطورًا في سجل الأحياء، حي لا يتكلم.. لا يتحرك.. لا يشعر.. لا يدري أين هو ولا تدري هي أين هو؟! هل تركها إلى الأبد!!

تقدمت ببطء منه ولمست أصابعه في تردد شعرت وكأن أنامله تحركت، صرخت على الطبيب «أنه يتحرك»

أكد الطبيب لها أنه وهم، إحساس كاذب لا توجد أي مؤشرات لعودة وعيه.

وقفت بجانبه وعيناها محتقنة بالدموع وبقلبها حزن وبؤس وألم، أحيانا يبحث الإنسان عن سعادة يكون هو السبب في ضياعها ويحاول أن يجد حلًا لمشكلة يعلم أنها لا حل لها.

كانت نظراتها تجسد معني كلمة اليأس.. ويأس الإنسان قد تدركه بسهولة على ملامح الوجه ونظرات العينين حين تغيب عنها بريقها وكأنك تنظر إلى عيون ميتة.

طلبت أن تبقي معه وحيدة لعلها تكون آخر لحظاتها معه لعلها آخر نظراتها إليه وآخر حديث لها معه لعله يسمعها!

جلست بجوار رأسه واقتربت من أذنيه.. همست إليه:

«هل تسمعني؟ هل تشعر بي؟ أرجوك لا تتركني لا أتخيل الحياة بدونك.. كيف ستتركني هكذا..

لقد أحببتك حبًا هز كياني، كان حبك روحًا دبت في جسدي كانت لحظة وجودك معي تساوي العمر كله، لقد قضيت كل حياتي أراعي شجرة حبنا، وكان حبك مصدر الحياة، وجودك معي هو المعنى الحقيقي لها ولذلك أصبحت أخاف أن أفقدك، فكما كان يعذبني الشوق في بعدك سيقتلني فراقك. لا تتركني فأنا أخاف الحياة بدونك، أخاف المستقبل، أخاف أن أفقدك، إنني أموت حزنًا إذا خطر ببالي أن تبتعد أو أن تضيع مني.. هل ستسامحني؟

وبدأت نفسها تتهدج وتنهمر دموعها من عيون أطفأها الحزن

«أرجوك سامحني ما أفظع الشك نعم الشك لقد قتلني الشك..

نعم إني أحبك!! ولأني أحبك أفزعني أن أتصور أن تكون لأحد غيري، كنت أتفحص نظراتك فأشعر أنها نظرات تجردت من حبك لي، بدأت أشعر بأخرى تدخل حياتك تريد أن تشاركني فيك، كثرة غيابك وسفرك أشعل في نفسي نار الشك والغيرة لم أتحمل الفكرة.. فكرة أن تأخذك مني أخرى وتنجب منها وريثًا بعد أن يأست أن يكون مني أنا.. لم نترك طبيبًا إلا وذهبنا إليه إلى أن اهتدينا إلى أمهر طبيب في هذا المجال وبدأ علاجه لي سنتان من العلاج وما زالت فرصة أن أنجب لك طفلًا بعيدة المنال.

كان حلمي طول عمري معك أن ينبت في أحشائي جنينًا منك يكون ثمرة حبي لك وضمانًا لحبك وبقائك جانبي طوال العمر، شعرت أن حياتي مهددة بأن أفقدك، أفقد نفسي لم أستطع...لم أستطع»

وغلبتها الدموع فألقت رأسها على صدره ولم تستطع أن تهمس في أذنيه بكل ما كان يجيش بصدرها.

إنها تشعر أنه يشعر بها وربما يسمعها فهل تعترف له فهل تبوح له بما يعتمل في صدرها، إنها لا تدري لماذا حدث هذا وكيف؟!

فقد سيطرت عليها الغيرة سيطر عليها الخوف شعرت أن أخرى تهدد وجودها شعرت بالعجز واختلط عندها الحب بالكره.

لم تكن لديها أدلة حقيقية ولكنه الوهم سيطر عليها، ربما كان شعورها بأن لديها نقص لعدم قدرتها على الإنجاب سببًا وراء ظهور هذا الوهم، فأصبحت تتشمم رائحته هل خالطها عطر غريب وتتبع عينيه هل تغيرت نظراته الهائمة والمغرمة بها، وكانت تموت في كل لحظة تراه فيها شاردًا ظنًا منها أنه يفكر في الأخرى، وإذا طال حديثه في تليفونه كانت على يقين أنها هي، حاولت أن تحصل منه على اعتراف بأنه يخونها فلم تستطع ولكنها لم تكن لتقتنع أصبحت حياتها عذابًا بعد أن كانت مثالًا للسعادة والهناء

وها هي تقف بين يديه تشعر بالفعل أنها ستفقده ليس بسبب أخرى ولكن بسبب غيرتها، تريد أن تعترف له أنها كانت مخطئة، تريد أن تتوسل إليه ليبقى، لأن يعود للحياة ولو للحظة تطلب منه الغفران.

لم تكن بوعيها حين دست له سمًا حتى لا تحظى به أخرى، لم تكن تعي ماذا هي فاعلة، لقد أعماها الغضب وطمست بصيرتها الغيرة المرضية التي سيطرت عليها، فلم تفكر إلا كيف تمنع أنثى أخرى تأخذه منها، فهو ملكية خاصة لها.

فلما علمت أنه باع أرضًا يملكها بات مؤكدًا لديها أنه يستعد للزواج من تلك الأخرى، فقررت أن تمنعه منها بأي وسيلة فدست له سمًا لتقضي عليه.

وقفت بين يديه وهو في عالم آخر يقضي عليها الندم ويقتلها الذنب، سيأخذه منها الآن الموت، سيأخذه منها الغيرة والوهم، لم تكن تعلم أنه كان يحبها كل هذا الحب ولكن...

لكن تأخر عنها كثيرًا هذا اليقين، فهي الآن فقط عرفت بل وتأكدت كم كان يحبها، عرفت كم كانت واهمة وكانت تطارد سرابًا، بعد أن أخبرها طبيبهم أنه قد دفع له ثمن عملية الحقن المجهري في أشهر المراكز المتخصصة لأطفال الأنابيب وذلك قبل دخوله للعناية المركزة بأيام!

إذًا فقد باع الأرض ليستطيع الإنفاق على تكاليف هذه العملية، باع الأرض ليحقق حلمها ويتوج حبهما بطفل يقوما بتربيته، إذًا ما يشغله الأيام الأخيرة ليس أمر سيدة أخرى لقد كان مشغولًا بها، ولكنه الآن لا يستطيع أن يسمع اعترافها، فهل يمكن أن يكون قد أدرك الحقيقة وهو في العالم الغيبي الذي انتقل إليه!

قد يكون مات!

ربما يكتب له حياة أخرى.. ولكن الذي لا شك فيه.. أنها فقدته.

لملمت

خط العمر

أخذت تتبين خطوط كفه على ضوء القمر المنعكس من على سطح النيل:

«يا ربي .. إن خط العمر في كفك قصير.. أتدري ماذا يعني ذلك؟!»

نظر إليها وقد شغلته عيناها التي تحوي كثير من الأسرار و تترجم معنى الجمال من أن يلاحظ اهتمامها بأمر خطوط كفه.

«انظر إلى خط العمر في كفي إنه أطول منه في كفك!

رد وهو ما زال سابحًا في بحور عينيها:

«ماذا في هذا؟!»

ردت في زعر: «هذه مصيبة»

روعته الكلمة فانتبه من أسر سحرها إلى ما تقول

«مصيبة؟!»

«نعم.. هذا يعني يا حبيبي إن عمرك أقصر من عمري.

فابتسم ضاحكًا وهو يضم كفيها الرقيقتين في حضن كفه:

«أتؤمنين بهذا الكلام!»

«طبعًا.. إنه علم»

فرد وملامح وجهه لا توافقها الرأي:

«الأعمار بيد الله.. ولا تدري نفس ماذا تكسب غدًا ولا تدري نفس بأي أرض تموت»

سحبت يديها برفق من حضن يديه وعلى وجهها علامات الجدية:

«إن الأمر ليس كما تظن، فخطوط الكف لا تحدد مقدار ما سيعيشه الإنسان باليوم والساعة ولكنها تعطي تصور عن طول العمر وقصره»

لم يقنعه تفسيرها لكنه لم يرد أن يتجه الحوار بينهما لمناقشة جدلية تفسد جمال اللحظة التي يعيشها معها فمازحها بابتسامة دافئة كأنه يحتضن نفْسُها المنزعجة بالأوهام:

«حبيبتي كلامك ذكرني بصديق قديم كان له رأي ظريف.. يقول أن للزوجات عمر أطول من الأزواج لأنها تثقله بالهموم والمتاعب لدرجة أنك إذا تناولت صفحة الوفيات بأي جريدة ستتعجب أن نعي الوفاة مكتوب بهذ الصيغة، توفيت السيدة فلانة زوجة المرحوم فلان باشا، هل لاحظت المفارقة في خبر الوفاة»

غمزت بعينيها غمزة من اكتشف الأمر:

«نعم زوجها توفي من عهد البشوات ولم يتذكرها الموت إلا مؤخرًا» وضحكت ضحكة لذيذة وضحك معها لكنها سرعان ما عادت إلى جديتها قائلة:

«لكني لا أمزح أنا أعتبر هذا مصيبة»

فعاد بظهره إلى الوراء..

«أين تكمن المصيبة إذا افترضنا صحة خط العمر ونظرية صديقي هذه»

فردت وهي تضع يديها على وجهها الصافي:

«هذا يعني أنك من الممكن أن تموت قبل أن أموت أنا، وأنا لن أستحمل الحياة بدونك»

فاجأه تفسيرها وألقي في نفسه شعور عارم بالسعادة والنشوة إلى هذه الدرجة هي تحبه حتى أنها لا تتصور الحياة بدونه، أخذ كفيها مرة أخرى في حضن يديه وضمهما إلى صدره:

«أحبك إلى آخر عمري»

فغلب على نبرات صوتها رعشة خفيفة:

«كم أنا خائفة»

«حبيبتي لماذا؟»

«أخاف من أن أفقد هذا الحب»

«لماذا تنظرين إلى الأمور بهذه النظرة التشاؤمية؟ يجب أن تعيشي لحظات السعادة ولا تفسديها بتلك الأوهام..» ثم حرك مقعده قليلًا لينعكس ضوء القمر على عينيها فقد كان يعشق أن يري لون عينيها في ضوء القمر.

«يا حبيبتي الحياة جميلة.. يجب أن نعيشها سويًا.. تتذكرين نصيحتك وهديتك لي في أول لقاء لنا؟!

«هدية ونصيحة!!.. لا أتذكّر

مد يده إلى جيب سترته الداخلي وأخرج كيس مغلف،

نظرت إليه وضحكت:

«كيس السكر!.. أما زلت تحتفظ به!»

«نعم أتذكرين؟! لقد قدمته لي عندما رأيتني متبرم من متاعب يوم عمل طويل وأنتِ تقولين لي مازحة للتخفيف عني..، احتفظ به.. فقد ينفعك عندما تشعر بمرارة الحياة»

«نعم يا حبيبي أخشي من إحساس المرارة الذي يصيب المحبين»

رد وهو يعيد كيس السكر مكانه وفي حكمة قال:

«ربما أحيانًا يكون لهذا الإحساس جمال..

أحيانًا تكون بمرارة الحب لذة.. إن لمعظم قصص الحب شقاء ومرارة يعانيها من يحبون، وأعتقد أن في هذا الإحساس بالمرارة أحيانًا وبالشقاء والصعوبة أحيان أخرى ما يضمن للحب بقاءه واستمراريته».

«وربما العكس فكثير من قصص الحب فشلت بسبب المعاناة وإن انتهت بالزواج»

«حبيبتي لا تعممي ولا تكوني متشائمة»

«هكذا أنتم يا رجال تأخذون تلك الأمور ببساطة حتى أمر الحب بقاؤه أو موته»

«أعتقد أن الحب لا يموت إلا بكارثة وعندما تحدث كارثة في علاقة الحب فأولى له أن يموت حينئذ على أن يعيش مصابًا بعلل تعجزه أو تشوهه»

ردت وهي متحفزة:

«واحدة من هذه الكوارث أن يتزوج الرجل على زوجته»

نظر إليها مستغربًا:

«ماذا تقصدين؟!»

ردت وعينيها تبحر بعيدًا عن شاطئ عينيه:

«كما هو خوفي من قضاء الأجل أخشى من مراهقة سن الأربعين عندما تبرد المشاعر وتُمل الملامح فيبحث الرجل عن حب جديد ويدفعه لخيانة حبه الأول.. أليست هذه كارثة تقضي على الحب؟!»

حاول أن يعيدها بطرف إصبعه يحرك ذقنها الدقيق ليعود ويتجول بين قسمات وجهها:

«ربما يحدث

نظرت إليه بحدة.. فاستطرد قائلًا:

«نعم ربما يحدث هذا، لكن أكيد الكارثة ليست هي زواجه من أخرى، إنما الكارثة الحقيقية ستكون قد حدثت قبل هذا وكانت من نتيجتها أنه تزوج من أخرى!

كانت ما زالت حادة النظارات:

«ماذا تقصد؟»

«أقصد أن من يفعل ذلك ربما قد مات حبه في قلبه قبل أن يبحث عن حب جديد.. ربما كان هو السبب بأنه لم يعد يراعي حبه فتركه يزيل ويلفظ انفاسه أو ربما لم يدر ما هو الحب بعد وقد تكون هي السبب، لم تعد تراعيه وتشعره أنه ما زال ذلك الحبيب الذي يملك عليها حياتها أو بدأ البرود يتسرب من شقوق الحياة إلى قلبها فتجمدت فيه المشاعر.

«ترمي الكرة في ملعب المرأة»

«لماذا تحسبيها مباراة؟ إن المحبين الذين يعتبروا العلاقة بينهما مباراة يكون مصيرهم الحتمي هو الفشل حيث أن أي مباراة يستلزم فيها أن يكون هناك فائز وخاسر وهذه المعادلة لا تصلح في حالة الحب، فالحب حالة يلزم فيها أن يفوز الطرفان ولا يخسر أحدهما.. الحب مشاركة وجدانية وليس تنافس عاطفي» ثم وضع قبلة رقيقة على أصابعها وقال:

«الحب واحد ولا يمكن أن يكون اثنين»

ردت وقد شعرت أنه كسب المباراة:

«أنا لا أحسبها مباراة.. أنا أحسبها صراع من أجل البقاء.. الحب في حياتي بقاء.. حياة.. فإذا مات.. فهو الموت إذًا»

نظر إلى السماء وقال لها: «حبيبتي أحبك وأحب أن تكوني محبة فقط واتركي الغد لقضاء الله، لكن أتمنى أن لا تتسرب الهموم إلى مشاعرك وتبرد وتقضي أنت عليه بنفسك»

تمر السنون، وتجلس زوجته في نفس المكان أمام صفحة النيل الزرقاء، وتجلس روحه بالقرب منها بعد أن تحققت نبؤتها، ترقبها..

لم تكن في هذه اللحظة وحيدة فقد كان زوجها الثاني يجلس على الكرسي المقابل وكانت تناقش معه نفس القضية.

تبرع بجنيه

الدوسيهات المغبرة.. والأوراق الصفراء والأختام المحبرة.. والألسن التي مهما قالت فهي خرساء! والتعب المضني يزحف على جسده المنهك.. والعروق المحتقنة المنسحبة تحت الجلد والأعصاب المنفلتة تحت ضغط المطالب!!

وأنا قابع هناك منطويًا. منزويًا.. خزلان وحزين..

حزين على الماضي التليد.. وأيامي الخوالي

أيّام كنت من علية القوم يعمل لوجودي ألف حساب وحساب.. وعن طريقي يتم تلبية مئات الطلبات.. أيّام كنت قوي البنية، عريض المنكبين، عظيم الشأن، وأنظر إلى نفسي الآن، هزيل.. قزم في عالم من العمالقة الخضراء وغيرها.. لا قيمة لي على الإطلاق.

كان ينظر إليّ من حين لآخر بطرف عينيه وأنا منزوي بين التلال المصطفة أراقبه وهو يؤدي عمله، مسكين هو الآخر.. موظف، كلاهما مرادف للآخر، يقسم ويضرب.. يطرح و يجمع الآلاف والملايين، ويغوص في محيط من الأرقام والأصفار، يدفع طاقته وعمره في مقابل..لا شيء، مرتب هزيل مثلي و.. مثله.

إنه يترقب قدوم هذا اليوم من كل شهر بلهفة وتخوف، نظر إلى النتيجة ثم إلى هرم الأوراق والدوسيهات، ثم إلى ساعته.. إنها تقترب من الثانية ظهرًا وما زال الموظفون يفدون إليه الواحد تلو الآخر.. إنه أول الشهر!

وكلما حان وقت الانصراف أراه يزداد اضطرابًا وقلقًا... ويمتقع لون وجهه كأنه قادم على معركة غير مؤمن بها.. ثم يتمتم بكلمات يحدّث بها نفسه في ضيق:

«كل هذا يمكن تأجيله.. لكن مصاريف المدرسة.. فاتورة الكهرباء والماء.. وأقساط الديون والسلف.. أين كان يختبئ كل هذا لي..

حتى الأوفر تايم ألغوه هذا الشهر ومش عارف أجد وظيفة مساءً»، كانت يديه ترتعشان من الاضطراب والإرهاق وهو يعد المرتب لنفسه، كان كمن سقط على قلبه هم ثقيل، كنت كمن يسمع حديث نفسه في هذه اللحظة عندما طفت على ذاكرته أقصى مرارة في حياته.. سناء.. ابنته الكبيرة.. إنه يقف مكتوف الأيدي أمامها.. وهو يرى قطار الزواج يتعداها.. إنها مشكلة بلا حل.

ساعات ويجلس مع «أم علي»، يجلس أمامها بلا حيلة، نفس النقاش والعراك كل شهر، يعد مرتبه: «ناقص جنيه» ينظر باحثًا..

يحدّث نفسه مرة أخرى:

«لا يوجد غيرك.. في الآخر تكون أنت من نصيبي أنا»

يأخذني مطويًا بحذر حتى لا أتمزق ويضعني في جيب قميصه العلوي.. ويغلق الباب السميك للخزانة.. ويخرج

ها هو قادم إليكِ يا «أم علي» ليحلها معك.

أخرج معه وأنا قابعًا في جيب قميصه إلى الشارع الذي يبدو كما هو يمتد طويلًا كالمقالات في الصحف.. طويلة مملة وحقيرة!

على الرصيف المزدحم بتشكيلة متنوعة وغريبة من البشر ينتظر الأتوبيس الذي سينقله إلى السيدة زينب حيث يقطن هناك في منزل صغير ضيق بعمارة آيلة للسقوط.

وتأتي رحلة العذاب اليومي.. رحلة الهرص الآدمي والآدمية الضائعة داخل الأتوبيس.. تحيطه دوائر ومربعات ومستطيلات من البشر وأنفاس مختنقة تلتف حوله وتحاصره.. وأذرع تشد قبضتها عليه تكاد تخنقه، لماذا كُتب علينا الألم والمكابدة؟ لماذا هذا الشقاء الذي يزحف على أجسادنا وهذا التدافع والزحام؟

«من أجل الأنفس الأربعة»

«ادخل يا افندي الأتوبيس فاضي بالداخل»

ينظر إليه باستياء:

«فاضي.. عندك حق ما هو كل شيء نسبي على رأي أنشتين»

الكل يتحدث ويثرثر، وهو يفكر، يخبط أحدهم على الصحيفة التي يقرأها بيده، «يا نهار!.. ١٠ مليون جنيه ضرائب مستحقة منها»

«مِنْ مَن؟!»

«راقصة يا سيدي»

إنه أكثر الواقفين مَن يستطيع أن يتخيل ضخامة دخلها حتى تكون الضرائب ١٠ مليون جنيه.

أشعر بالدفء داخل جيب القميص.. لكن حبات العرق المتراكمة على جسده تتجمع علي وتبللني وتكاد تقضي عليّ ما بقى في من تماسك.

يرد آخر على صاحب الصحيفة:

«أتظنها الوحيدة. ألم تسمع عن صاحب شركات المحمول الذي هرب من البلاد وعليه ضرائب مليارات من الجنيهات

المهم لا يجدوا إلا الغلبان علشان يتبرع بجنيه للمشروع الفلاني والمستشفى الفلانية والصندوق العلاني»

يرمقهم ويغيب بذاكرته في عالم الديون التي تنتظره، كم مرة حدثته نفسه أن يمد يده مثل الجميع من حوله ويأخذ تحت أي مسمى من المسميات التي اصطنعوها، لكن هناك أشياء زرعت بداخله منذ صغره تمنعه وتعذبه.

يصل الأتوبيس أخيرًا، يتملص منه ويتجه إلى منزله

وعقله يدور ويعمل بسرعة وجبينه منعقد.. يصعد درجات السلم.. ويفتح الباب.. تركض ابنته الصغرى إليه وتلتصق برجله فينحني ويقبّلها على جبينها.

«المدرسة تطلب تبرعات منا يا أبي اعطني عشرة جنيهات لكي أتبرع مثل أصحابي»

ينظر إليها مبتسمًا ابتسامة تملؤها المرارة، ينادي على زوجته أم علي..

تخرج إليه من المطبخ ويديها مبلولتين وعرق طفيف على شفتها العليا:

«غيّر هدومك وأنا أنشف يدي وآتي إليك»

يدخل حجرته وتتبعه، يخلع القميص الذي أقطن جيبه العلوي، «أكاد أختنق يا حبيبتي»

«والعمل يا مرسي لم تجد فرصة عمل في أي شركة أو محل بعد الظهر!»

«لا توجد فرص عمل بالسهولة التي تظنيها»

«والحل؟»

تأخذ مكانها على السرير.. تعيد تجفيف كفيها في ذيل ثوبها استعدادًا لاستلام النقود والاشتراك في حل حسبة «برما

«هذا الشهر لازم تدفع جزء من الإيجار ٤ شهور متأخرين.. وصاحب المنزل طلبهم أكثر من مرة، تناول البيجامة وهو ينفخ تبرمًا.. يلمح سناء قابعة هناك في الخارج وكأنها دمعة حزينة في أرجاء المنزل.. تشيع جوًا من التوتر والكآبة، تدخل أسماء البنت الصغرى في مرح الطفولة تطلب المبلغ للتبرع في المدرسة كزملائها.. يسمع صراخ علي قادم من الحجرة الثانية.. تنادي الأم على سناء بالخارج:

«الرضعة عندك يا سناء أعطيها له.. اللبن المدعم مش لاقينه بسهولة الصيدلي بيديني العلبة في السر مثل المخدرات.. فين الفلوس يا مرسي!»

يضع يده في جيب البنطلون الذي مازال يرتديه

...ثم ينزعها بسرعة وقد ارتسمت علي جبينه علامات الفزع الرهيب كأنه رأي شيطانا

يضع يده في الجيب الثاني ثم الخلفي.. ينتزع القميص من علي السرير، تقف زوجته» «ماذا بك يا رجل؟!»

«الفلوس.. المرتب.. لقد سرقت!!»

تسقط أم علي على السرير وقد صدمها الخبر، تنظر أسماء في براءة: «فلوس التبرع يا أبي!»

ينظر إليها ويدخل أصابعه لجيب قميصه العلوي ويخرجني متهالك، ويمد يده بي إلى ابنته الصغيرة..

منعدمة.. يا ربي.. الحل إيه؟!»

لم يكن يشعر أحيانًا ويكلم نفسه أمام الموظفين وهو يؤدي عمله ولم يشعر أيضًا وهو يأخذني من مكاني ويقدمني إلى آخر وافد قد دخل عليه:

أستاذ مرسي ده جنيه تعبان خالص متهالك.. خلاص خليه مع باقي الفكة، قلبني بين أصابعه: ليس به شيء!

خلاص خذه أنت

ينظر إليّ بإشفاق ثم طواني بغير عناء فقسماتي قد بليت من كثرة الطي ووضعني على طرف الرف بالخزينة وأنا أشعر بخيبة الأمل والخزي، لا أحد يريدني ولن أ خرج من هذا السجن الحديدي.

وقف وأخذ يعد نفسه للانصراف

قال لنفسه:

«آخذ المرتب أنا الآخر»

ملتت

الخبر

«اسمع يا صديقي هذا الذي تفعله اسمه يأس! إنك تقف هكذا كالمعتوه! لماذا أنت مستسلم هكذا لا تفعل شيء إلا الفرجة! لماذا أنت ساكت.. خائف جبان!»

«خائف جبان.. لا أسمح لك».. يسكت بعض الوقت مفكرًا ويستطرد:

«ربما.. لكن.. لا.. لا.. أنا ضحية»

«لا إنك تريد أن تكون ضحية وظيفة سهلة وعمل مريح إنه منطق حزب السلبيين المنهزمين، نعم حزب السلبيين، ألا تعرف هذا الحزب، إنه حزب جديد وقديم في نفس الوقت، كل شروط الانضمام إليه أن تقبع داخل جدران بيتك في انتظار ما ستفعله بك الأحداث.. تنظر إلى حقوقك تتسرب من بين أصابعك دون أن تقبض عليها، وتشعر بالألم ولا تبحث عن دواء حتى ولو كان مسكنًا، إنك تستعذب هذا الألم.

إنني أستعجب من أمثالك ما الذي يجعل هؤلاء الناس أمثالك لا تصرخ عندما تشعر بالألم؟! ما الذي يجبرهم على أن يتحملوا

الإهانة والأسى والحزن والجوع؟! ما الذي يجعلهم يَرَوْن مصيرهم البائس التعيس قادم عليهم ولا يحاولون النجاة منه؟!

يرفع عينيه من بين الأوراق المكدسة أمامه على المكتب كسنوات العمر، وينفض بطرف إصبعه حبات تراب متراكمة فوق أرنبة أنفه ثم يرمق صديقه الذي اندفع فيه بلسان سريع الطرقات قائلا

«كفاك شعارات»

«أنا لا أقول شعارات، أنا أقول حقائق.

«ما أسهل القول وما أصعب العمل.. إن كلامك جميل المظهر لكنه لا يصلح إلا للمظاهرات وندوات الرأي و مانشتات الصحف.. صحف المعارضة إن وجدت طبعًا.. لكن من يده بالماء ليس كمن يده بالنار»

صدقت لكن الوضع الآن مختلف لقد وصل الأمر إلى تهديد أمنك ومستقبلك.

تصدر فجأة فرقعة عالية نتيجة اصطدام الجريدة التي كان يقرأها زميلهم الثالث بالأرشيف بسطح مكتبه ويصيح بصوت حانق متذمر:

«نفس الكلام.. أكاذيب وأباطيل.. جعلونا جميعًا محترفي كذب.. ومحترفي عدم تصديق.. لا يوجد يقين... الشك يا سادة أصبح أول

احتمال في الحكم على الأشياء.. كل ما تكتبه الصحف غير حقيقي.. زيف تضليل.. تناقضات بين الواقع وبين الكلام المطبوع المرسوم الكاذب المنمق، وأصحاب الأصوات المتشنجة للضلال أصبحوا كثيرين، والعقول المزيفة للحقيقة تعمل لدى عقول مسخرة من عقول مستخفة ونحن عقول مهمشة ليس لنا وزن تحت السطح لا نملك إلا أن نصدق كل ما يقال.. لا بل وتؤمن به.. ليس لي أن يكون لدي رأي.. ولا لك.. ولا له.. ولا لأحد.. أليست هذه مهزلة!»

ثم ينفجر في ضحك هستيري، لكن لا ينظر إليه صاحباه وكأنه ليس معهم أو كأنه لم يكن يحدثهم بالمرة.

ويعاودا حوارهما.

«إنني أشفق على وضعك المزري، يجب أن تفعل شيء بدل من الفرجة هكذا عليهم حتى لا يتفاقم الأمر ويصل إلى حد ليس له حل.

«صدقت، إنهم يتزايدون يومًا بعد يوم يتضاعفون، أولادي وزوجتي منزعجون»

يغتاظ صاحبهم الثالث لعدم التفات أي منهما إليه فيهب فيهم بصوت عالي كالمجنون:

«ماذا دهاكم؟! ألا تزعجكم هذه الأخبار!!.. ألا يزعجكم ما آلت إليه أحوالنا.. ابني يرقد مريضًا في البيت لا أستطيع أن أكمل

مصاريف علاجه وهناك ثروات هائلة تهدر في كلام فارغ.. بالله عليكم كيف تصدقون أننا مديونون.. وكل تلك الأموال تصرف هكذا ببذخ في ما لا طائل من ورائه.. وأي مبرر يبرر كل هذا الغلاء المسعور الذي ينهش عظامنا.. نعم عظامنا بعد أن أكل لحومنا وتدثر بجلودنا.. كيف يمكننا أن نتصور هذا الترف والثراء الذي يقامر على وجودنا بل يعيش على أنقاضنا وفوق جثثنا»

ثم يقوم واقفًا وهو يستطر:

– «كنت أصبّر نفسي أن الغد سيكون أفضل وسوف تتحسن الأحوال هكذا يقول المنطق الطبيعي، وأصبر نفسي بقول الشاعر المخدوع: ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج»

لقد اعتادا من صاحبهما مثل هذا الكلام فيستمرا في ما انقطع من حوار بينهما ويرد الثاني على الأول:

«ليس عجيبًا على الإطلاق ما تقول.. إنهم ليسوا مثلنا، إنهم يلتهمون أي شيء يجدوه ولم يجدوا من يتصدى لهم ويحاول اصطيادهم فلماذا لا يتضاعفوا.. إنني أرى أن الأمر وصل إلى حد يجب معه أن تفعل شيء، أي شيء».

«ماذا برأيك أن أفعل؟ لا توجد لدي حيلة»

«تصرف يجب أن تقاومهم، يجب أن تتحرك قبل فوات الأوان.. من قال أن ليس بيدك شيء»

«هذا حقيقة الأمر الواقع الوضع أصبح من الصعوبة بحيث أنني لا أدري كيف أقاومهم»

«يجب أن تتصرف الأمر أصبح خطيرًا على حياتك وحياة أولادك الصغار»

ينفجر الصاحب الثالث في ثورة مغتاظًا أن لا أحد ينتبه إليه:

«إننا جميعًا مسئولون عما يحدث وعما سيحدث سواء باللا مبالاة أو بالخوف أو بالصمت»

– يلوذ الاثنان بالصمت ويكمل ثالثهما: «نعم إننا جميعًا مسئولون أنت وأنت وأنا وهذا وذاك» ويشير في حركة مسرحية إلى الهواء وكأن هناك من يقف معهم، كلكم السبب في ما يحدث»

يقول الصديق الأول لزميله: «اذهب أنقذ أولادك»

– فيرد في تخاذل: «لقد أصبحوا قبيلة كيف نتصدى لهم، إنهم في كل مكان يحيطون بِنَا من كل جانب يفسدون علينا الحياة، أتدري لو أملك إمكانية سوف أترك منزلي وأهاجر إلى أي مكان آخر!»

«لا تضحك على نفسك هذا ليس في إمكانك وليس الحل الصحيح»

– يصيح الثالث في وجه زميله هائجًا «تحرك». يخرج مسرعًا وينظر كل منهما للآخر دون حراك ثم يسود سكون عاصف يطأطئ كل منهما رأسه ويجلسا في خزي في مكانيهما.

يأتي صباح اليَوم الثاني، نفس المشهد في مكتب الأرشيف ببدروم المصلحة والصاحب الثالث يتصفح جريدة اليوم كعادته والأول يقلب في الدفاتر وأمام كل منهما كوبًا من الشاي يتصاعد البخار منهما، وكرسي زميلهما الثاني، ما زال فارغًا.. يقف قارئ الجريدة فاغرًا فاه قائلًا في ذهول:

«أقرأت هذا الخبر!»

ويقرأ على الأول بصوت عال:

«مصرع مواطن وأبناؤه في منزلهم بعد تعرضهم لهجوم شرس من قبيلة من الفئران الضخمة كانت تتكاثر في أرجاء منزلهم منذ فترة»

ملتت

نعيم و.. جحيم

مثل ثمرة التفاح الناضجة كانت في نضوجها، ومثل لمعة النجوم في الليل السرمدي كانت لمعة عينيها، ومثل ضحكة الطبيعة في ربيعها كانت ضحكتها، ومثل فتنة الدنيا كانت فتنتها.. وكان وهو يقترب منها، يحب كل الأشياء، يحب الغبار الدقيق السابح في ضوء الشمس وكأنه يرقص على إيقاع سيمفونية كونية رائعة، ويحب حبات الندى وهي تبرق راقدة في أحضان الورود، ويحب الزهور ذاتها وهي تتمايل فوق أغصانها، والفراشات الحالمة وهي تتنقل بين الزهور تداعب خدودها الناعمة، ويهوي السحب المتكاثفة الزرقاء ترسم في السماء لوحات خيالية.

حتى الجمال الكامن في البيوت التي تشهد خطواته إليها والسيارات التي تعبر بجواره كأنها كائنات حية تلقي عليه التحية ويجاوبها.

فكان يعشق في طريقه إليها الأماكن والطرق وآثار الأقدام علي أديم الأرض، وإذا اقترب منها كانت رعشة أصابعه والسهام المنطلقة من نظرات عينيها إلى أعماق قلبه فتزيد من دقاته، تزيد من وجله

وخوفه من أن يقترب أكثر فتتبخر من أمامه كجنيات الأساطير، فيبتعد وفِي بعده كان يحب خداع العين والأذن واللمس، فهو يلمسها ويسمعها ويراها،

يحيط بها ولكنه لا يجدها بين ذراعيه، فكان يعيش وهو بعيد عنها.

فكرة عبقرية ولمحة رومانسية ولمسة عاطفية وكان يشعر أنها ليست بعيدة عنه.

إنها تسكن أعماقه، ولكنه كما كان يخشى المجهول كان يخشاها وكمن ينظر إلى طلاسم صعبة الفهم كان ينظر إليها ، فكان يتصورها صفحة بيضاء مخطوطة بحبر سري ليس عنده الوسيلة لإظهاره ولكنه يحب أن تظل هكذا صفحة بيضاء.

اقتربت منه وسألته سؤال باغته:

هل تحبّني؟!

نظر إليها وقال: الحب هو أنت

اقتربت منه قائلة:

إذًا لماذا تبتعد عني كلما اقتربت منك؟!

نظر إلى عينيها وقال: أخشى لهيبك

تجمدت مكانها وقالت: عذاب أنا إذًا

هز رأسه نافيًا وقال: بل أنت نعيم

قالت وقد استبدت بها الحيرة: لا أفهمك.. حيرتني

قال: أخشى أن أقترب فيتحول نعيمك إلى نار تحرقني و تكون فيها نهايتي

ردت: ولماذا لا يكون في قربي بدايتك

قال وفي صوته نبرات حب: أنتِ كالقمر نحبه وهو بعيد عنا ولكن هل سنظل نحبه إذا هبطنا على سطحه وعرفنا طبيعته الجامدة؟!

ردت: ومن يدريك؟! ربما وجدته أجمل بالحياة فيه أكثر من جماله وأنت تنظر إليه وهو بعيد عنك؟!

قال: أريدك باقية في نفسي لا تنتهي

بدأت تغضب وقالت: ما زلت لا أفهمك.. أنا أفهم الحب لقاء بين اثنين، أفهم الحب اندماج ينتج عنه حياة، أفهم الحب ماء يروي الشجر لتحضر أوراقها وتنضج ثمارها، أفهم الحب استقرار وامتلاك واكتمال

قال لها: وقد يكون في اللقاء افتراق، قد يكون في الاقتراب اغتراب وبُعد، إنني لا أريد أن أعرف عنك غير ما أنت عليه في نفسي، أريدك تبقين لي ملاكي وجنتي التي أعيش في ربوعها أجمل لحظات حياتي

قالت: وكيف تعيش في جنه لم تدخلها

رد: لقد دخل آدم الجنة وأخرجته حواء منها

قالت: خرج أدم من الجنة

ولكن جعل الله له في حواء نعيمه على الأرض

رد: أو جحيمه

كيف تراني جنة تعيش فيها وأنت بعيد عني وتتصورني جحيم وأنت قريب مني؟!

قال: لأني أحب فيك نعيم الروح وأخاف أن تبعدني لذة الجسد الفانية عن جنة الروح الخالدة، قد تفهمين الحب أنه إحساس بالفتنة وإشباع للرغبة، ولكن الحب الذي أريده منك حب يشعرني بجمال الحياة، التجارب تؤكد أن الحب يذهب بعد اللذة وينتهي مع بداية مسئولية الأولاد

ردت: اللذة جزء من الحب والأولاد دليل عليه، والحب لا ينتهي بل ينتقل من شكل إلى آخر، إن ما تقوله هروب، إنك لا تفهم الحب ربما تعيش وهمًا ولكني لا أفهمك

قال لها: هكذا أحبك

قالت له: الحب الذي لا ينتهي بالزواج ينتهي

فرد: والزواج الذي يفقد الحب ينتهي

قالت: الحب من غير زواج حكاية تحكي وليست حياة تعاش

فقال: خير للحب أن يكون حكاية خالدة على أن يكون ضحية الواقع وقتيل المادة ودعوة كاذبة للمتعة

قالت له وهي غاضبة: أنت إنسان أناني لا تعرف معنى العطاء، فالحب عطاء ولا عطاء بدون زواج

قال لها: المشاعر عطاء

قالت: إنها عطاء خيالي وهمي تتصور فيه حياة في خيالك والزواج عطاء واقعي بين اثنين ومشاركة في أوقات السعادة والحزن، الحب اتفاق واختلاف

قال: إنني أحبك في وجودك وفِي غيابك فحبك أكبر حقيقة في وجداني

أدارت له ظهرها وذهبت مبتعدة وهي تقول:

إذًا فلتذهب بحبك هذا إلي الجحيم.

ماتت

صابر وحماره

الطريق الزراعي يمتد طويلًا تحرسه صفوف الأشجار على الجانبين، عربة صغيرة محملة بالخضروات تندفع وراء الحمار الذي يجرها ورجل في خريف العمر يلاحقها.

دوامة من الضباب البارد تغطي الأراضي الخضراء من حوله وتحيل لونها إلى الرمادي وعلى الرغم من أن أنوار المصابيح ما زالت مضيئة على أعمدتها العالية لكن ضوءها كان ضعيفًا لا يقوى على زحزحة الضباب الثقيل من على سطح الأرض.

اقتربت العربة الخشبية بعجلاتها الدائرية غير المنتظمة من الكوبري المتهالك الذي يعلو فرع من أفرع الترعة وأصبح الطريق يتدرج في العلو تجاه الكوبري، الحمار يعاني من صعود مطلع الطريق وبدأت العربة تنحدر إلى الخلف ساحبة الحمار للوراء، حاول الحمار تثبيت رجلية الخلفيتين في الأرض حتى لا تشده العربة إليها، وبدأ جسد الحمار يتشنج وينفض عرق غزير رغم برودة الجو، سارع صابر بكل ما لديه من قوة أن يعيد الأمور إلى زمامها، مرة بذراعيه معًا ومرة بكتفه ومرة يتقدم أمام الحمار ويجذبه من عنانه

ثم ينطلق مسرعًا إلى خلف العربة الخشبية ويثبت كتفيه تحت مؤخرة سطح العربة ثم يفرد رجليه على امتدادهما ليصنع من جسمه كتلة صلبة تمنع العربة من التقهقر، فيساعد الحمار على أن يجذب العربة شيئًا فشيئًا حتى اجتازا بالعربة والخضار هذا المطلع العنيد،

أما النزول من على الكوبري في الجهة المقابلة فكان أسهل بكثير، فلم تكن العملية شاقة إذ تولى الحمار وحده هذه المرة بإقتدار عملية كبح جماح انزلاق العربة إلى الأمام.

لم يكن الأمر سهلًا، خصوصًا في السنوات الأخيرة، فقد كبر الحمار وضعف وأصبح جسمه هزيلًا ولم يكن صابر بأحسن حال منه، عِشرة عمر هذا الحمار ورفيق كفاحه، ربما لو كان يمتلك سيارة نقل صغيرة بموتور حتى ولو كانت حقيرة وموتور ضعيف لأصبح الأمر أكثر سهولة ولكن من أين له؟

اقترب من السوق، ما زالت شمس النهار تتثائب لم تستيقظ بعد لتلهب ظهر الأرض، وقف أمام حماره وعربته الخشبية المتهالكة وسط جيوش ضخمة من سيارات النقل العملاقة وهي محملة بمحاصيل متنوعة وقادمة من مزارع بعيدة، مزارع غنية تنتج أطنان من المزروعات الناضجة الكبيرة الحجم، لا يدري أية أرض تلك التي يمكنها أن تنتج طماطم وخيار وبصل وبطاطس وكوسة بمثل هذه الأحجام والأشكال.

قال له ذات مرة الشيخ رمضان إنهم يستخدمون سمادًا خاصًا مستورد و بذورًا مُهجنة.

لم يستوعب ما معنى مهجنة آنذاك ولكن الكلمة تركت لديه انطباعًا أنه يقصد بذورًا بنت ذوات من عائلة متأصلة،

ولكن كيف لأرضه النائية في آخر الأرض الطيبة بصعيد القطر أن تنافس هذه المزارع الغنية.

وخاصة بعد أن قل طمي النيل الذي كان له أثر السحر في نضارة المحاصيل ولذاذة طعمها، لم يفكر يومًا أن يكون منافسًا لها، ولم يراوده حلم أن تصل أرضه لمستوى تلك المزارع.

تحرك تجاه المعلم مسعود الذي اعتاد أن يشتري منه ما تنتجه أرضه من مزروعات مقتنعًا أن أرضه مبروكة وأن محاصيله على قلتها ما زالت تتميز بطعم أصيل، ولكنه لم يجد الحج مسعود في مكانه من السوق، كان حسنين ابنه يقف مكانه وعرف من حديث الناس في السوق أن الحج حسنين بالعناية المركزة في المستشفى العام يصارع مرضًا خطيرًا.

توجه إلى حسنين يواسيه فرد عليه بفتور واضح ثم التفت عنه، اقترب منه مرة أخرى لينبهه أنه جاء بالمحصول الذي اعتاد أن يبتاعه منه أبوه الحج مسعود إلا أن حسنين رفض بشدة لعدم احتياجه إلفى

محاصيله، ورد عليه: «يمكنك أن تفترش بهذه البضاعة وسط السوق لتبيعها قطاعي»

وقف صابر أمام حماره الذي بدا مرهقًا ثم نظر إلى الطماطم والخيار فوق العربة الخشبية لو انتصفت الشمس على تلك الخضروات دون أن تحفظ في ثلاجة لكي تباع في الأسواق ستذهب نضارتها وسيصعب بيعها. وفكرة افتراش وسط السوق لبيعها بالكيلو لن يعود عليه بمكسب لأن السوق سوق جملة وهو يعلم جيدًا أن باقي التجار لن يشتروا منه بضاعته لأن كل منهم له من يمده بالمحاصيل المتنوعة من المزارع الكبيرة التي يمتلكها رجال لهم نفوذ.

إنه ينتظر هذا اليوم بفارغ من الصبر فهو في حاجة إلى المال، لا يوجد في منزله ما يسد رمقه هو وأسرته وحماره،

إنه في أشد الحاجة لبيع هذا المحصول اليَوم ولكن أصبح واضحًا أن الأمور تتغير لغير صالحه.

مرض الحج مسعود وهزال حماره الذي أصبح غير قادر على جر عربته الخشبية والصعود بها إلى أعلى الكوبري الذي يربط قريته النائية في أقصى الصعيد بسوق المدينة الكبير عبر الطريق الزراعي، وقلة المياه في الترعة التي تروي أرضه وقلة الطمي وضعف الأرض

ومحصولها، حتى بيع المحصول أصبح أمرًا صعبًا لأنه ينافس محاصيل بنات ذوات!

لم يكن لديه حل آخر ولم يفكر كثيرًا، شد حماره خارجًا من السوق بعد أن قرر أن يقف بعربته ومحاصيله على قارعة الطريق الزراعي يبيعها للمارة.

ابتدأت الشمس تعلن عن وجودها في كبد السماء، وكان صابر وحماره يقفان على حدود الطريق من ورائهم تبدو أرض يختلط فيها اللون الأخضر الباهت بمباني خرسانية تنبت في وسط الحقول التي أضعفت تربتها الخرسانات الحديثة، وكان الكوبري الصعب الطلوع على بُعد عدة أميال يفصل قريته التي تعيش كلها تحت خط الحياة عن باقي الحياة التي تقع في نهاية الطريق الزراعي، حيث الهيئات والمصالح والبيوت العملاقة والشوارع المرصوفة

وحيث علية القوم أصحاب المزارع الغنية.

لم يذق صابر هذه الحياة ولم يتخيل طعمها، كانت السوق هي علاقته الوحيدة بالمدينة والحج مسعود هو آخر الرجال الذين يمكن أن يقدّروا مثل هذا الرجل المكافح في أرضه التي كانت خصبة وما زالت رغم قساوة الزمن تحتفظ ببعض خصوبتها كامرأة خمسينية ما زالت تحتفظ بخصوبتها وجاذبيتها وجمالها الخاص الذي يأسر الرجال.

وقف صابر وحماره كأطلال زمن على مشارف زمن ينتظر رزقه، ينتظر أن يترجل أحدهم من سيارته ليشتري منه بعضًا من بضاعته.

مر اليَوم ثقيلًا وانتهى قبل أن يبيع كل المحصول، ولكنه رضي بما وقع في جيبه من مال يستطيع أن يشتري به قوت يومه، وغابت الشمس وغاب صابر وحماره في حضن الأرض الطيبة الجميلة الخصبة.

غابت الشمس وعاد صابر مع حماره إلى دارهما وهما لا يدريان هل هذا هو حظهم من الحياة أم أنهم لا يملكون أن يطلبوا من الحياة حظًا أوفر.

عاد صابر لا يتمنى شيئًا أكثر من ما تمناه حماره ساعة راحة بالليل وقوتًا يسد جوعه.

عاد صابر وما زال لا يدري إن هناك في نهاية الطريق الزراعي حياة أخرى وأحلامًا أخرى ورزقًا آخر.

انتهى يوم صابر وهو لا يدري إن كان في غده ما هو أسوأ أو أفضل، لكنه نام هو وحماره وهما لا يحملا للغد حلمًا أو همًا.

المُغفَّلة

لم تلاحظ وهي تقف مكانها أن ملامح الشوارع تتغير يومًا عن يوم ربما الشوارع أيضًا تشيخ وتكبر، أو ربما الأشياء حولها تتراكم عليها الأتربة ويكسوها الغبار والأدخنة الخارجة من خلف السيارات فتحول الشوارع والبيوت والأشجار والورود إلى لون رمادي حزين، ربما غابت عنها حقائق كثيرة عن الحياة.

أمسكت الورقة بين يديها، نظرت إليها وتردد في ذهنها سؤال لم تستطع أن تجيب عليه، رفعت رأسها إلى الشارع أمامها، بياع الفول على عربته الخشبية في منتصف الرصيف يكتظ حوله أناس يلتهمون الفول والبصل في صحون رديئة لم تغسل جيدًا، وشباب وأطفال يحملون فوط سوداء ينظفون بها زجاج السيارات من أجل جنيه أو اتنين،

جنيه أو اتنين!!

ما زال الناس مغلوبة على أمرها ومازالت الأحلام تنتظر جني خاتم سليمان ليحققها، هل هؤلاء الناس مغفلين! ما زالوا ينتظرون جني خاتم سليمان؟!

نظرت إلى الورقة وهي مكرمشة بين يديها ودار في رأسها السؤال مرة أخرى:

«من منا المغفل؟!»

سمعت بداخلها صوت يريد أن يحاورها، كان على مرمى بصرها الشارع ممتد ثم ينتهي بميدان كبير، لم تتحرك من مكانها أمام باب المستشفى الذي كان مغلقًا خلفها عندما كانت تمر كل يوم على المرضى.

رأت حالتها مستقرة في بداية الأمر وإن كانت الجلطة التي أصابت شريان المخ الأيمن أصابها بشلل في جانب الجسد الأيسر، لم تكن تستطيع الكلام بوضوح فقد كانت هذه هي الفترة المناسبة للتدخل بالعلاج الطبيعي والتأهيلي والنفسي حتى تستعيد وضعها شيئًا فشيئًا، هكذا تعلمت، ولكن إصراره الشديد على ألا يتدخل أحد آخر أو أن تخرج من العناية المركزة إلى قسم تأهيل علاجي وتختلط وتجلس بجانبها ابنتها أثار دهشتها.

فهو طبيب كبير يشار إليه بالبنان، ولكنه كان أيضًا معروفًا بأنه ديكتاتور في رأيه ولا يسمع إلى الأطباء الشباب حديثي التخرج أمثالها.

ناقشت حالتها مع كثير من زملائها، كلهم كان لهم نفس الرأي ولكنهم فضلوا الاحتفاظ برأيهم لأنفسهم خوفًا من بطش هذا الأستاذ

الطبيب الكبير العظيم لأنها حالته الخاصة ولا يجب أن يتدخل أحد في قراراته.

كانت ابنتها مسكينة تجلس طوال الوقت خارج باب العناية تتابع وضع أمها، تنظر إليها من خلال الزجاج المغبش الموجود في النصف الأعلى من باب العناية، لم ترَ غيرها يزورها، ثم عرفت بعد ذلك من أم إبراهيم العاملة بالمستشفى أنها ابنتها الوحيدة، وأنهما من أسرة عريقة لديهما بعض الأموال والأراضي موروثة عن أجدادهما تنفقان منها وتعيشان على خراجها.

وهي بنت بلون القمح وعينان بلون النيل ووجه بريء كطلعة الصباح، ترى أمها طريحة الفراش وليس في مقدورها أن تقدم لها ما يعيد إليها حيويتها ونضارتها إلا المال للطبيب، هذا الطبيب الدكتاتور الذي خان مهنته التي أؤتمن عليها وحرص على أن يكون هو وحده المتحكم في أمر المريضة من أجل أن يستمر تدفق أجرة الاستشارات والزيارات الطبية، غير الأموال الطائلة من أجل سرير العناية وأجهزة الرعاية.

- «يا دكتور أليست حالتها مستقرة!

المريضة سوف تنتكس إذ لم نخرجها من أجواء الرعاية إلى غرفتها مع ابنتها»

رد عليها في غلظة وحدة:

-»ليس لك شأن، المريضة ما زالت في حاجة إلى الرعاية»

قالت تحاول أن توضح وجهت نظرها:

- «لكن..»

لكن نظرته النارية الشرسة أسكتتها

لا يصح أن نترك مريض قد استقرت حالته بعد وضع حرِج مفصول عن العالم وعن الحياة الطبيعية بحجة أنه محتاج إلى رعاية، يجب أن يتحرك المريض إلى الخطوة التالية في العلاج.. المريض ليس سلعة احتكارية يتسلط عليه طبيب واحد ما دام يستطيع أن يدفع ويتدافعه الأطباء بعيدًا إذا كان خالي الوفاض

«مسكينة!»

لقد بدا الاكتئاب يزرع مساحات واسعة في نفسها لم يقضِ عليها المرض ولكن سيقضي عليها الجشع والاستغلال

قالت في نفسها:

«يجب أن أساعدها..!! ولكن كيف فأنا طبيبة حديثة ليس لي السلطة ولن أستطيع أن أخضعها لطريقة العلاج الصحيحة.. و أنت أيتها القمحية ألن تتصرفي لإنقاذ أمك!

ولكن ماذا بيدها تفعله؟!

فإنها لا تعلم أنها أوكلت أمها لمن تظن أن لديه العلاج والعلم.

«أكيد لم تتخيل أن يستغلها طبيب أمها»

نظرت مرة أخرى إلى نهاية الطريق لمحت الميدان كحلبة المصارعة الرومانية.

البيوت تحيط به، منها المتواضع ومنها المنتكس هامته ببلكوناته وشبابيكه المتهالكة، ومنها ما يرفع رأسه عاليًا يريد أن يلمس السحاب، تلك البيوت لم تهتم بمن اهتموا بها يومًا ولم تتذكرهم، تتابعت الأجيال وبقت المباني والأحوال

لماذا أهتم بأمر هذه المرأة وأمها! لماذا لا أركز على مستقبلي وعملي علمي!

علمي...! علمي هو المشكلة

المشكلة إنني أعلم.. إنني أعرف، والعلم سلاح ضد الاستغلال والاستغفال.. نعم العلم.. إذًا يجب أن تعلم

قمحية اللون يجب أن تعلم وتأخذ القرار في مصير أمها

إنها صاحبة الشأن. لا يجب أن أتركها هكذا تستغل وتضيع أمها وربما تضيع أموالها أيضًا»

نصحتها صديقتها أن لا تتدخل في شؤون الآخرين

«خليكي في حالك.. وابعدي أنفك عن ما لا يخصك»

قالت لها: «ضميري لا يسمح لي أن أسكت»

شجعها والدها: «افعلي ما يمليه عليك ضميرك المهني»

قالت له: «صديقتي تتهمني بالحماقة أحيانًا وأحيانًا أخرى تقول لي إنني مغفلة مش فهمة الدنيا صح»

قالت لي ذات مرة: «إنتي عايشة في عالم مش موجود،

المصلحة هي أهم شيء في هذا العالم، المصلحة الشخصية شوفي مصلحتك فين وسيري وراءها»

ما زالت واقفة مكانها، الباب ما زال مغلقا وراءها والطريق يمتد طويلًا إلى الميدان، عدد المارة يزيدون تراهم كالأشباح يمرون هنا وهناك يتداخلون مع مسار السيارات في شكل عشوائي كتداخل المصالح في هذا العالم، العربات الفارهة والتوكتوك، العاطلون يمسحون زجاج السيارات

والبلطجية ينظمون ركنها بجوار الأرصفة، الكل يتحرك من أجل مصلحته أو كما يظن أن حركته من أجل مصلحته،

«القمحية يجب أن تعلم الوضع، يجب أن تعلم أن الطبيب يستغفلها، يجب أن تعلم أن أمها في خطر، يجب أن تنقذ أمها، واجبها يحتم عليها فضح الموقف»

نظرت إلى الورقة المطبقة ثم رفعت رأسها إلى الشارع ولمحت صاحب عربة الفول يلملم أشياءه من على الرصيف وتذكرت تلك النظرة من العيون النيلية عندما قالت لها:

«انقذي أمك.. إن حالتها سوف تسوء إذا استمرت في العناية أكثر من ذلك، إن طبيبها يصر على بقائها من أجل المال ولا ينظر إلى مصلحتها، لا أحد يستطيع أن يثنيه عن قراره إلا أنتِ، يمكنك أن تطلبي نقل أمك بناءً على رغبتك إلى الخارج، واذهبي بها إلى طبيب آخر ينظم لها علاج الضغط وآخر يبدأ معها العلاج التأهيلي، العلاج الطبيعي»

قالت لها: «إن وجودك بجوارها فيه نصف علاجها»

بدت منها لها نظرة مبهمة عجيبة لم تفهمها، وكان ردها عليها أعجب:

«أنا أثق في الدكتور، أمي كويسة زي الفل والشلل حيروح هي مسالة وقت في العناية»

قالت لها تشرح لها وضع أمها:

«مصاب الجلطة الدماغية لا يذهب عنه الشلل ولكنه يتحسن بالعلاج الطبيعي، صدقيني أنا أريد مصلحتك»

رمقتها بنظرة شك وكأنها تنظر إلى تلميذ أجاب إجابة خاطئة، قالت لنفسها:

«إنها طبيبة صغيرة تريد أن يكون لها شأن ويعلو نجمها

فهل تعتقد أنها أمهر من الدكتور الاستشاري! يا لها من مغفلة!

لم أستسيغها ولم أتقبلها من أول يوم رأيتها فيه، أنا أعرف مصلحتي ومصلحة أمي، لست في حاجة إلى مثلها لكي تعرفني مصلحتي..يا لها من مغفلة.

***

رمت الورقة من يدها وتحركت بعيدًا عن المستشفى

«إنها مغفلة لا تدري مصلحتها ومصلحة أمها»

لقد اشتكتها إلى الطبيب بعد حديثها معها مما جعله يصب جام غضبه عليها ثم قرر إقالتها من المستشفى قائلًا:

«هذا أقل رد فعل مني على فعلتك، أنتِ فاهمة نفسك إيه! إنك لا شيء! كيف سولت لك نفسك أن تتحديني وتعصّي عليّ مرضاي، أنا ممكن أدمر مستقبلك نهائي، ليس لكي بعد الآن عمل في المستشفى»

لم تنظر إلى ورقة إقالتها التي ألقتها على الأرض وذهبت إلى عمق الشارع حتى تاهت في وسط المغفلين.

ملتّث

وسوسة

«لقد خلقنا الإنسان في كبد»

يقتحمه الصوت

– الموت ثم الظلام ثم لا شيء، يرد الوجه ذو اللحية البيضاء من بعيد هناك من اللا نهاية:

– لا ثم أشياء

أما زلت تنظر إلى الحياة على أنها ظواهر ونقوش.. حدودها ما نلمسه بأطرافنا.. الليلة كالبارحة.

خرج إلى الشارع يزود بهوائه همومه يأخذ نفسًا عميقًا ويحبسه ثوان داخل صدره.. ثم ينفسه.

ثم لا يطيق أن يكون نقيًا.. فيخرج سيجارة من علبته ويشعلها، يأخذ نفسًا آخر مضمخًا بدخانها.. ويحبسه أيضًا. ثم ينفسه وينظر إلى سحابات الدخان فوق رأسه ونسمات الهواء تبثها بثًا، ينظر إلى النهر ورائه ذو السطح الهادئ.. ليت أنهار دمه تكون في هدوء هذا النهر، إنها في صخب مستمر، يستقل سيارة أجرة إلى شارع الهرم، يرى

الأهرامات شامخة رابضة فوق صحراء الجيزة.. حضارة سبعة آلاف سنة، تضحك ملامحه الداخلية ضحكة سخرية عندما يتجول بنظره في أنحاء الشارع الممتد طويلًا طول التاريخ بما فيه من صخب ودراما، محلات من أجل لقمة العيش تقع بجانب محلات من أجل رغد العيش، رجال يكابدون الحياة وآخرون ينعمون بالحياة، ونساء تكد من أجل الرزق الحلال وأخريات تتلاعب من أجل مضاجعة الرجال.

«إنها حضارة تحتضن حقارة»

يذكر أبيه بوجهه ولحيته البيضاء أكان رجلًا عظيما؟!.. عاش يعلم القيم والأخلاق يجلجل بها صوته فوق المنابر أين هو الآن؟ وماذا أنجز؟! لقد لحق بأصحاب حضارة الأهرامات.

لكن هؤلاء تَركوا وراءهم الأهرامات، ماذا ترك هو وراءه!

كان رجلًا تقيًا زاهدًا، كم كان ساذجًا أيضًا، أتراه أخذ من الدنيا حقه! لا يظن وإلا ما كان هذا هو حاله بعده الآن.

«وهذا ما جناه أبي علي.. وما جنيت على أحد.. هل يجب أن أجني على أحد؟!

انتصف الليل وما زالت الأضواء متلألئة هنا وهناك،

كم مر من عمره وهو هنا على ظهر الدنيا، لم يعد يحسب ولكنه لا يدري ماذا يريد منها وماذا هي تريد منه؟!

لا يهم المهم ما يريده هو هذه الليلة.. نزل من السيارة مد يده في جيبه وأعطى السائق بضعة جنيهات لم يعدّها ولم ينظر إليه ولم يسمع رده ولا تعليقه وتزمره، تقدم من البوابة الخشبية القديمة، تلك التحفة الاثرية تدل على عراقة وقدم ولكنها لا تدل على المكان وما يدور بداخله.

دخل وكأنه يدخل عالم خرافي الأضواء خافته ولكن الأصوات صاخبة جدًا لا يكاد يسمع نفسه، أطل فجأة في رأسه بصوت كصدى الصوت: «تقدم»

فتقدم كالمسحور وصوت موسيقي صاخبة تكاد تصدع الحوائط وكأن بها خمر يذهب العقول ويزلزل الأجساد، فهي تتمايل من حوله وكأنها ستهوي على الأرض وتتدحرج هنا وهناك.. «تقدم»

تومض الإضاءة في وجهه فجأة كالبرق يذهب نظره وتسود الدنيا أمام عينيه لثواني ثم تبيض ويري لحية والده يأتي من بعيد من العدم.. وجهه الغاضب، يقف فجأة، يتسمر مكانه

تظلم الدنيا مرة ثانية ثم تضئ ويرتد إليه بصره، يقتحمه الصوت: «تقدم لا تضيع الفرصة»

قاده أحدهم بعد أن وضع في يده المال إلى الغرفة حسب الاتفاق.

***

(ألم نجعل له عينين ... ولسانًا وشفتين ... وهديناه النجدين)

«انظر لا تكن عبيطًا.. أليست مثل عينيها.. وشفتيها مثل شفتيها.. وشعرها نفس اللون.. وكذلك لون البشرة .. بل إنها كملكة فرعونية إنها أجمل من كليوباترا وأروع من أفروديت.. انظر إليها.. لماذا تخاف أم أنك ما زلت مترددًا خائفًا!.. لا تكن جبانًا إنه وقت الرجولة..

ماذا تقول!.. هل أنت ساذج أتظنه خيانة.. من الخائن؟! إنها هي الخائنة.. هي من اختارت غيرك.. أم إنك ما زلت تشك؟! ليس بعد الموت إلا الظلام ثم لا شيء.. لا شيء.»

السرير يتوسط الحجرة وهي تتوسط الفراش في رداء خفيف شفاف والجدران تمتلىء لوحات مغرية والنور يتخفى وراء الستائر، والصوت يقتحمه من جديد..

«انظر إلى ساقيها ينبيان عن جمال مستتر ومتعة تأخذك في غيبوبة.. ما أسعد من يلثم الفراولة الناضجة على شفتيها ويلتهم تفاح خدودها..

لن يكلفك هذا كثيرًا.. لن تشغل بالك بمسئولية.. لا شبكة ولا جهاز ولا منزل بمئات الألوف.. ولا هموم أسرة ولن يكلفك أن تجني على أحد..

ماذا تقول.....!

لا تقول لا تحاول أن تناقش.. هذه هي المتعة مجردة، اسمع كلامي..

ماذا تظن.. أتظن أني أخدعك؟!

أو تظن أن تحرس حضارة سبعة آلاف سنة خداع

اثبت إنك رجل.. إنها تنتظرك تمد لك ذراعيها بالمتعة التي لا حدود لها، فما بالك والأخر انساها..

هيت لك.. أسهل.. أجمل.. أمتع..

لن يكلفك الأمر سوى طبقة شفاه أثرة.. ثم.. ثم تقدم لقد تركت بابها مفتوح.

***

كانت لبداية رشفة الكأس طعم المتعة.. ولذة الشهوة وإذ لنهاية طعمه غصة في الحلقوم.. ونار في الصدر.. وشوك على الفراش.. أرق بالليل ولهيب بالفراش.. يطوف في الشوارع طوال النهار ثم يغوص في سريره آخر الليل بلا هدف.

تتخبط الأفكار في دهاليز ذاكرته وتعذبه نفسه بالجلد، عذاب ما بعده عذاب.

«أين أنت أنقذني من هذا العذاب.. أنقذني إني أكاد أغرق.. نفسي يختنق.. أكاد ألفظ روحي ولا أَجِد نفسي.. لا أطيق الأشياء..

ولا أستطيع الحياة.. لا أستسيغ طعام.. ولا أقبل على عمل.. راحتي تعب.. وتعبي قمة الشقاء.. انقذني.. ماذا أفعل؟!

ما زلت أحلم بها لم تنسني أفروديت العاهرة، وجهها الملائكي ولا نظرات عينيها البريئة الطاهرة، نعم

إنها طاهرة وأنا مدنّس غائص في وحل قذر وبساطها نظيف، أشعر أنني لو اقتربت منه سوف أدنسه!!»

- «أترتاح لو دنسته؟!!- «

ماذا؟!.. ماذا تقول؟!.. أدنسه»

- نعم إنك توهم نفسك.. لا شيء نظيف.. ولا شيء دنس إن كل الأشياء سواء، هي كغيرها، لكن غيرها أتيح لهم الفرصة وهي لم يتح لها.. كلهن سواء ولكنك لا تفهم!

- لا تقل ذلك إنها طاهرة وأنا بغي

- ما هي الطهارة.. وما هو البغاء من قنن لكم هذه القوانين وخدعكم بهذه المعاني

-قنن.. معاني!

- لا تفكر ولا ترد، إنهم العاجزون.. الضعفاء.. وأنت لست عاجزًا ولا ضعيف

- لكني معذب

- بيدك أن تخرج نفسك من هذا العذاب

- كيف؟.. اقصد ماذا تقول!!

- لا بل كيف؟.. المهم هو كيف؟

يصمت.. يرتقب أن يوحى إليه، أن يأتيه الرد من داخله كصدى الصوت يرن في أرجائه ويقنعه، ويأتيه الصوت كالعادة يقتحمه..

- دنّس بساطها.. إنها كغيرها.. والليلة كالبارحة والفراش واحد وأنت هناك، اقتحم مخدعها إن كانت اختارت غيرك فليس لأنها لا تريدك، ولكن لأن أهلها يَرَوْن أنك لا تستحقها فكيف لابن الشيخ أن يأخذ بنت الذوات.. لا تتردد هي الليلة وغدًا أخرى سيكون الكل سواء لن تقاومك، عندما تجدك مقتحمًا عندما تجد نفسها بين ذراعيك لن يمنعك أهلها ولن يكون الشيخ سببًا لفقدانها، لن تشعر بالندم ستفهم الدنيا على حقيقتها، لا صفاء ولا بغاء»

- يا ربي من أين أتيت.. إنك غوي أثيم

- لا.. بل ناصح أمين.. صدقني لا سبيل لك من هذا العذاب إلا أن تتبعني.. لا ترفض لقد تذوقت أول لقمة، يجب أن تأتي على كل الطعام ولا تبقى هكذا جائعًا... لا تترك هكذا النار تحرق جوفك

اطفىء هذه النار برشفة أخرى.. لا يفل الحديد إلا الحديد، إني أداويك بالتي كانت هي الداء.

***

الصعود على طريق الآثام.. يعقبه لا مفر هبوط.

قال تعالى:(فكأنما خَر من السماء ،فتخطفه الطير، أو تهوي به الرياح في مكان سحيق)

إن مخدعها أبعد عنه من تاريخ الفراعنة وهي الملكة نفرتيتي الحقيقية بل هي أفروديت ذاتها

إنها كالحضارة التي لم يستطع أن ينالها بحقارته ولم يبق له إلا الزيف الكائن هناك في حضن الحضارة بأضوائه المتخفية والأصوات الصاخبة التي تزلزل الأجساد وتحطم الأرواح وتبعثر النفوس في الطرقات طوال الليل، ثم يأتي الصباح على أجساد مطروحة هنا وهناك كمخلفات الأعاصير والنوات.

لم يصبح هناك لذة أوعذاب، ولم يبق هناك متعة، لقد أصبح كالجائع.. يأكل وإذاعطش.. يشرب

ثم لا شيء.. ينتظر أن يجوع ثانية وأن يعطش أخرى... ليأكل ثانية ويشرب أخرى.

ويدور في فلك هذه وتلك وتبقى هي كقمر بعيد عن مجرته

لا ينتظر جديد لا شيء جديد.

– ماذا إذا وقفت هذه الساقية عن الـدوران؟!.. ماذا لو نفذت شهيتي للطعام والشراب؟! ماذا لو كانت النهاية؟! أهي الحياة.. تلك الظواهر المادية.. ولا شيء غير ذلك ولا شيء بعد ذلك؟!.. أين أنت لماذا لا أسمع صوتك؟!

تتحرك كالحية بين يديه في حضنه بدون ملابسها وبعطرها الذي أصبح يألفه، ولكنه لم يعد يدير رأسه كأول ليلة على نفس السرير في نفس المخدع ذو الأضواء المتخفية. واللوحات المغرية ولكنه لا يشعر بأي لذه ولا بالأجواء الساحرة، إنه ينتظر صوته..

–لماذا لا تجيب هل أخطأت حتى وجه أبي لم أعد أراه ينير أمامي عندما تظلم الدنيا!

أخطأت؟!

يرن الصوت في أذنيه، في نفس اللحظة كانت المتلوية تلثم فاه..

– إنك لم تخطئ.. استمر

يبعدها عن حضنه وهي تتعلق به

– هل أستمر في هذه الساقية الملعونة، أشعر أنها ستقذفني في نهاية المطاف إلى هوة سحيقة وأنا مغمض العينين.

– وهم.. لا تفسد عليك متعتك بتلك الأوهام والأكاذيب

– أين تلك المتعة! إنني فاقد التوازن كأني في الفراغ في اللا جاذبية.

– إنها قمة النشوى لو بعدت عن هذا الهراء أرتشف العسل من بين شفتيها.. تمتع.. ألست ترى كل من حولك هل الكل تائه.. هل الكل ضال؟!

يُقبل عليها ويرتمي في حضنها وينظر حوله من فوق كتفها وهي تتأوه وهو تتصلب مفاصله وتجحظ عينيه يراهم يقتحمون عليه المخدع!

يقتربون منه.. وكأن جبلًا هائلًا قد وقع على صدره وكتم أنفاسه، لا يستطيع أن يتكلم، يريد أن يتنفس، يقبض بقوة على أكتافها..

– أنقذوني من يحمل عني هذا الجبل.. أين أنت؟ من أنتم؟ يرى الوجه ذو اللحية البيضاء في طرف الغرفة وقد بلت لحيته دموع غزيرة..

(وجاءت سكرة الموت بالحق، ذلك ما كنت منه تحيد)

–أين أنت أنقذني؟!

(فكشفنا عنك غطاءك فبصرك الْيَوم حديد)

–ولَكني لا أجدك.. أين أنت، أين أنا؟! يا ويلي!

(قال قرينه ربنا ما اطغيته.. ولكن كان في ضلال بعيد)

لمست

فهرس

عكس الاتجاه 5

الغروب 18

لاوكون 30

سر الدكتور 44

غرزة معلم 72

المجذوب 80

الملوكية 92

فاوست 102

الجاثوم 114

الضريح الأبيض 122

حالة متأخرة 129

انبعاثة 143

فقدته 148

خط العمر 154

تبرع بجنيه 161
الخبر 168
نعيم و.. جحيم 174
صابر وحماره 179
المُغفَّلة 185
وسوسة 193